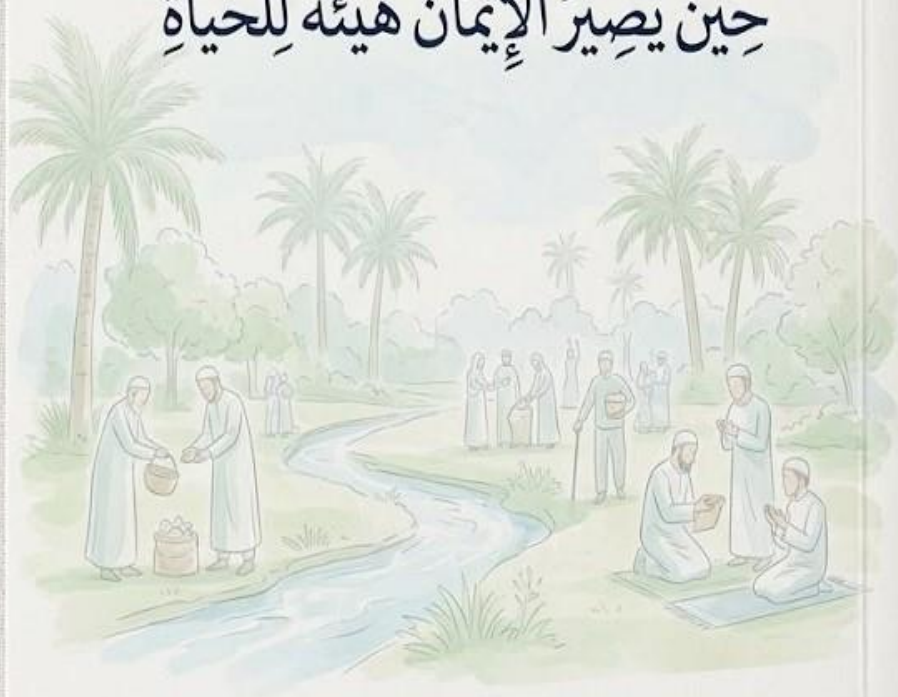


سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

حِينَ يَصِيرُ الْإِيمَانُ هَيْئَةً لِلْحَيَاةِ



رَدَّادُ السَّلَامِي

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

حين يصير الإيمانُ هيئةً للحياة

رداد السلامي

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد الرحلة

ليست سورة المؤمنون حديثاً عن جماعةٍ اختارت لنفسها اسم الإيمان، بل عن الإنسان حين يعيد الوحي بناءه من الداخل؛ فيتغيّر وقوفه بين يدي الله، ونظره إلى الشهوة، وعلاقته بالناس، وموقفه من الأمانة، وإحساسه بالوقت، وحركته في الحياة. إنها سورةٌ تنزع الإيمان من دائرة الادعاء، ثم تضعه في ميدان السلوك؛ لأن الأسماء التي لا تصدّقها الأعمال سرعان ما تذروها أول ريحٍ من رياح الابتلاء.

تبدأ السورة بالفلاح، وتمضي بنا إلى أصل الإنسان، ثم تفتح أمامنا سجلاً النبوءات، وتكشف طبائع المكذّبين، وتضع القلب أمام مشاهد الموت والبعث والحساب، حتى تنتهي بالدعاء إلى الرحمة. وكأنها تقول: إن الطريق بين الفلاح والرحمة هو أن يتحوّل الإيمان من كلمة تُقال إلى حياة تُعاش.

المقدمة المنهجية

في رحاب سورة المؤمنون

الحمد لله الذي خلق الإنسان من سلالَةٍ من طين، ثم سَوّاه في أطوار العناية، وأنشأ له السمع والأبصار والأفئدة، وأرسل إليه رسله لنُلاّ يضلّ عن غاية وجوده، وجعل الفلاح ثمرة الإيمان الصادق، والخسران عاقبة الإعراض والاستكبار. والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، الذي دعا إلى الصراط المستقيم، وبلّغ الرسالة، وأقام في الحياة الصورة الكاملة للإيمان حين يتحول من يقينٍ في القلب إلى عبادةٍ وخلقٍ وأمانة.

أما بعد:

فإن سورة المؤمنون ليست وصفاً لطائفةٍ تحمل اسم الإيمان، وإنما هي بناءٌ قرآني متكامل للإنسان الذي يصنعه الإيمان. إنها تنقل المؤمن من حدود الانتساب اللفظي إلى فضاء التحقق العملي؛ فلا تجعله مؤمناً بما يقوله عن نفسه، بل بما يصير إليه قلبه، وما تنضبط به شهوته، وما تحفظه جوارحه، وما يرعاه من عهدٍ وأمانة.

تفتتح السورة حكمها بصيغةٍ لا يدخلها التردد: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ). ثم لا تترك هذا الفلاح مفهوماً غائماً أو أمنيةً مؤجلة، بل ترسم له جسداً أخلاقياً وروحياً حياً: خشوعٌ في الصلاة، وإعراضٌ عن اللغو، وتركيزٌ للنفس والمال، وحفظٌ للفطرة، ورعايةٌ للأمانة، ومحافظةٌ على الصلة بالله. وكأن السورة تعلن منذ مطلعها أن الإيمان لا يضيف إلى الإنسان

صفةً خارجية، بل يعيد ترتيب وجوده كله؛ فيصير له قلبٌ آخر، وميزانٌ آخر، وطريقةٌ أخرى في العبور بالدنيا.

وقد اعتمد هذا الكتاب في مقاربة السورة منهجاً تأملياً ينطلق من دلالة الآية وسياقها ونظمها، ثم يتتبع ما تفتحه من أبعادٍ إيمانية ونفسية وإنسانية. فهو لا يريد أن يحلّ محل كتب التفسير، ولا يدّعي الإحاطة بما أودعه الله في كلامه من المعاني؛ وإنما يقف في ساحتها متعلّماً، ويلتقط من إشاراتها ما يعين القلب المعاصر على أن يرى نفسه في مرآة الوحي.

ومن هنا جاء السرد بعيداً عن التفكيك الذي يعزل الآية عن روح السورة، وقريباً من الحركة الكلية التي تنتظم مقاطعها؛ لأن سورة المؤمنون لا تعرض موضوعاتٍ متناثرة، بل تقود الإنسان في رحلةٍ محكمة من الفلاح إلى الرحمة، مروراً بالخلق والرزق والنبوة والموت والبعث والحساب. وكل مشهدٍ فيها يُمهّد لما بعده، ويستدعي ما قبله، حتى تبدو السورة كأنها سيرةٌ كاملة للوجود الإنساني بين نفخة الحياة ووقفه المصير.

فبعد أن ترسم السورة هيئة المؤمنين، تعود بالإنسان إلى أصله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ). وهذه العودة ليست استطراداً علمياً في أطوار الخلق، بل تأسيسٌ لمعرفة الإنسان بنفسه؛ حتى لا يغتر بمقامه، ولا ينسى فقره، ولا يظن أن وجوده حادثٌ بلا قصد. إنه مخلوقٌ خرج من الطين بعناية الله، ونُقل من طورٍ إلى طور، حتى صار قادراً على المعرفة والاختيار وحمل الأمانة.

ولا يقف التأمل هنا عند العجب البيولوجي في التكوين، بل يعبر منه إلى جلال التقدير، وإلى السؤال عن سر هذا الكائن الذي صار يسمع ويبصر ويعقل ويحسّ ويخشع. فمعرفة المراحل لا تستنفد سرّ الخلق، ووصف التكوين لا يغني عن معرفة المنشئ. وكلما اتسعت معرفة الإنسان بجسده، ازدادت حاجته إلى السؤال عن الحكمة التي جعلت من قطرة خفية كائناً يحمل في داخله عالماً من الوعي والضمير والرجاء.

ثم ترفع السورة بصر الإنسان من ذاته إلى الكون المحيط به: إلى طرائق السماء، والماء النازل بقدر، والجنات التي تنشأ به، والشجرة التي تخرج من طور سيناء، والأنعام التي تحمل الغذاء والمنافع، والفلك التي تشق طريقها فوق الماء. وبهذا تربط بين نعمة الخلق ونعمة الإمداد؛ فالذي أنشأ الإنسان لم يتركه في كونٍ غريب، بل هيأ له بيتاً كونياً تتوافق عناصره مع حاجاته، وتفيض كل زاوية منه بدلالة العناية.

غير أن النعمة لا تكفي وحدها لإيقاظ القلب؛ فقد يعيش الإنسان داخل البرهان ثم يغفل عنه، ويستهلك العطاء دون أن يعبر منه إلى المعطي. لذلك تنتقل السورة إلى موكب الأنبياء، حيث يرتفع النداء الواحد في أزمنة متعددة: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

وهنا لا نُقرأ قصص الأنبياء على أنها أخبار أممٍ انقضت فحسب، بل بوصفها كشفاً متجدداً لطبيعة المواجهة بين الوحي والهوى. تتبدل الوجوه، لكن اعتراضات المكذبين تعود؛ فيُرفض الرسول لأنه بشر، أو لأنه من المستضعفين، أو لأن دعوته تخالف ميراث الآباء، أو لأنها تهدد

امتيازات الملأ. ويتجدد في المقابل صبر الأنبياء، ووحدة ندائهم، واستنادهم إلى الله حين تنقطع بهم أسباب الأرض.

ويكشف تتابع الرسل في السورة أن التاريخ، في جوهره العميق، ليس مجرد تعاقبٍ للدول والحضارات، بل ميدان امتحانٍ مستمر بين الاستجابة لنداء الله والاستسلام لغرور الإنسان. ففرعون ليس اسمًا لشخصٍ مضى فقط، بل نموذجٌ للعلو حين ينسى صاحبه عبوديته؛ والملأ ليسوا طبقةً محصورة في زمن، بل عقليةٌ تحرس مصالحها بالطعن في الحق وحملته؛ والسفينة ليست خشبًا نجا فوق الماء فحسب، بل صورةً لليقين حين يعمل بوعد الله قبل أن يرى مقدمات تحققه.

ثم تجمع السورة موكب النبوات في حقيقة واحدة: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ). ومن هذا الأصل تكشف مأساة التفرق حين يتحول الدين من طريقٍ إلى الله إلى رايةٍ للتنصب، وحين يفرح كل حزبٍ بما لديه بدل أن يزن ما لديه بميزان الحق. فالوحدة في السورة ليست إلغاءً للاجتهاد أو تنميطةً للناس، بل ردٌّ لاختلافهم إلى أصل العبودية الواحدة، حتى يظل الحق أكبر من الجماعة، والله أكبر من كل انتماء.

وفي المقطع الأخير، تنقل السورة الإنسان من ضجيج الحياة إلى صمت البرزخ، ومن أوهام القوة إلى دقة الميزان، ومن الاستناد إلى الأنساب إلى الوقوف الفردي بين يدي الله. هناك تسقط الأسماء المستعارة التي منحها الإنسان لأفعاله، ويظهر الحق بعيدًا عن تزويق اللغة؛ فيعرف

الضال ضلاله، والمستكبر ضعفه، والساخر موقعه الحقيقي، ويرى المؤمن أن صبره الذي استصغره الناس كان هو الثقل الذي أنقذه.

وتتأكد في هذا الكتاب مركزية الآخرة في بناء الوعي القرآني؛ فهي ليست مشهدًا ختامياً يُضاف إلى الحياة بعد اكتمالها، بل نورٌ يعيد تفسير الحياة منذ بدايتها. من أيقن بالرجوع تغيّرت علاقته بالوقت، والعمل، والمال، والخصومة، والأمانة؛ لأنه لم يعد يرى الأشياء داخل لحظتها الزائلة، بل داخل مآلها الأبدي. ومن هنا كان إنكار الآخرة في السورة انحرافاً عن الصراط؛ لأن من فقد نقطة النهاية فقد المعيار الذي يصح به اتجاه الطريق.

وقد حرصت هذه القراءة على أن تجمع بين بيان المعنى واستحضار أثره؛ فلا يبقى الحديث عن الخشوع وصفاً لحركة المصلين الأوائل، بل يصبح سؤالاً عن حضور القلب اليوم، ولا تبقى الأمانة موعظةً اجتماعية عامة، بل تتحول إلى امتحانٍ للكلمة والمنصب والعهد وحقوق الناس. وكذلك لا يُقرأ الإتراف على أنه ظاهرةٌ تاريخية، بل بوصفه مرضاً يصيب النفس حين تتخذ كثرة العطاء دليلاً على الرضا، وتنسى أن النعمة قد تكون ابتلاءً لا شهادة نجاة.

ولأن هذا العمل تدبّرٌ بشري في كلام الله، فقد التزم الفرق بين قداسة النص واجتهاد قارئه. القرآن هو الأصل المعصوم، أما ما يُستنبط من لطائفه وآثاره الوجدانية فمحاولةٌ تحتمل الصواب والنقص. وما وافق دلالة الآيات وهدى التفسير الصحيح فهو من فضل الله، وما وقع فيه من

قصورٍ أو زلل فمن ضعف الإنسان، وكمال كلام الله منزلةً عن نقص قارئه.

ولم يُرد باللغة الأدبية هنا أن تكون زينةً تُلقى فوق المعاني، بل جسراً يصلها بالقلب. فجلال القرآن أرفع من زخرفة البيان، لكن المعنى الصادق يحتاج أحياناً إلى صورةٍ توقظ ما أخدمته الألفة، وإلى عبارةٍ تعيد للحقائق القديمة دهشتها الأولى. ومن ثم جاءت الاستعارة خادمةً للدلالة، والصورة تابعةً للهداية، والسرود وسيلةً لحمل القارئ من المعرفة إلى الشعور، ومن الشعور إلى المراجعة والعمل.

إن سورة المؤمنين تسأل كل قارئ، في عمقها: هل الإيمان اسمٌ تحمله، أم قوةٌ تعيد تشكيلك؟ هل صلاتك موعدٌ تؤديه، أم مقامٌ يسترد فيه قلبك وحدته؟ هل تمرّ بالنعم مستهلاً، أم تقرؤها رسائل عناية؟ هل تنتمي إلى الحق، أم تجعل الحق تابعاً لما تنتمي إليه؟ وهل تستعد للمال، أم تعيش كما لو أن الدنيا هي المشهد كله؟

وكلما مضى القارئ في السورة وجد أن الفلاح الذي افتتحت به ليس كلمةً سهلة، ولكنه كذلك ليس باباً مغلقاً. إنه طريقٌ واضح المعالم، يبدأ بخشوع القلب، ويمتد إلى حفظ الجوارح والأمانات، ويتقوى باليقين في الوعد، وينتهي إلى رحمة الله. فالمؤمن لا يفلح باستغنائه بعمله، بل بصدق عبوديته وافتقاره؛ ولذلك كان أجمل ختامٍ لرحلةٍ بدأت بوعد الفلاح أن تنتهي بالدعاء: (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ).

فهذا الكتاب رحلةٌ بين هاتين الصفتين: بشارة الفلاح في المطلع، والافتقار إلى الرحمة في الختام. وما بينهما تتكوّن هيئة الإنسان الذي

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

أرادته السورة؛ إنسانٌ لا يبقى الإيمان فكرةً في عقله، ولا خفقةً عابرةً في وجدانه، بل يصير فيه هيئةً للحياة.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ... حين يعلن الله النتيجة قبل أن تبدأ الرحلة

تدخل سورة المؤمنون إلى القلب من باب اليقين، فلا تقول: لعل المؤمنين يفلحون، ولا إنهم يرجون الفلاح، ولكنها تقول: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

إنها جملةٌ تحمل في بنائها طمأنينة الوصول. جاء الفعل ماضيًا، مع أن تمام الفلاح سيكون في الآخرة؛ لأن ما وعد الله به قد تجاوز في صدقه حدود الزمن، فكأن الجنة قد فُتحت، وكأن المؤمنين قد بلغوها، وكأن النتيجة قد كُتبت قبل أن تنتهي أعمار أصحابها. فما يكون في علم الله ووعده لا تهزه احتمالات الطريق، ولا تؤخره عوائق الأيام.

وفي افتتاح السورة بهذا الإعلان سرٌّ تربويٌّ عظيم: إن الله لا يكف المؤمن أن يسير في طريق مجهول العاقبة، بل يكشف له النهاية أولاً، ثم يصف له الطريق إليها. فالمنهج الإلهي لا يستدرج الإنسان إلى ظلام التجربة، وإنما يقول له منذ الخطوة الأولى: هذه ملامح الناجين، وهذا ميراثهم، فاختر لنفسك موضعًا بينهم.

والفلاح أوسع من النجاح؛ فالنجاح قد يكون بلوغَ غايةٍ صغيرة داخل حياةٍ خاسرة، وقد ينجح المرء في جمع المال ويخسر نفسه، أو يبلغ السلطة ويفقد حريته الداخلية، أو يربح إعجاب الناس ويخرج من قلبه مطرودًا. أما الفلاح فهو نجاة الكينونة كلها؛ أن ينجو قلبك من الضياع، وعمرك من العبث، وعملك من البطلان، ومصيرك من الندامة. النجاح يُقاس بما حصلت عليه، أما الفلاح فيُقاس بما صرت إليه.

لهذا لم يقل الله: قد أفلح الأغنياء، ولا الأقوياء، ولا المشهورون، ولا أصحاب الحظوظ الواسعة، وإنما قال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ). لقد أعاد القرآن تعريف الفوز في عالم يزن الإنسان بما يملك، فأعلن أن القيمة الحقيقية ليست في كثرة ما يقع في اليد، بل في النور الذي يستقر في القلب، ثم يفيض على الجوارح.

لكن السورة لا تترك الإيمان كلمةً غائمةً، ولا لقبًا مريحًا يحمله الإنسان ثم يمضي كما يشاء. فما إن تعلن فلاح المؤمنين حتى تبدأ في رسم صورتهم الحيّة: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

كأن أول برهانٍ على صدق الإيمان هو الكيفية التي يقف بها الإنسان أمام ربّه. لم تبدأ السورة بما يراه الناس من المؤمن، بل بما يراه الله منه في صلاته؛ لأن حقيقة الإنسان لا تظهر فقط حين يكون بين الخلق، وإنما تظهر حين يقف في الخلوة بين يدي خالقه.

والخشوع ليس انحناء الجسد وحدها، بل سقوط ضجيج العالم من القلب لحظة حضور الله فيه. أن يدخل المصلي صلاته متقلًا بالناس، والأسواق، والمخاوف، والرغبات، ثم لا يلبث أن يشعر بأن كل ما كان يملأ عينه قد صغر؛ لأن عظمة الله حضرت. فالحشوع إعادةٌ لأحجام الأشياء: يكبر الله في القلب، فيصغر ما سواه.

إن الصلاة الخاشعة لا تعزل المؤمن عن الحياة، بل تعيده إليها أكثر اتزانًا. يدخلها مشتتًا فيخرج منها مجموعًا، ويدخلها خائفًا فيخرج منها مستندًا، ويدخلها وقد نازعت الدنيا قلبه فيخرج منها وقد عرف أن الدنيا كلها لا تساوي لحظة قربٍ من الله. ولهذا كان الخشوع بداية صفات

المفلحين؛ لأن من عرف كيف يقف بين يدي الله عرف كيف يقف أمام كل شيءٍ سواه.

ثم تنتقل السورة من صيانة القلب في الصلاة إلى صيانة العمر خارجها: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ).

لم تقل: لا يسمعون اللغو؛ فالإنسان يعيش في عالمٍ يفيض بالضجيج، ولا يملك أن يمنع كل باطلٍ من الوصول إلى سمعه. لكنها قالت: (مُعْرِضُونَ)، والإعراض فعل إرادة؛ أن يمر اللغو بجانبك فلا تسمح له أن يقيم فيك، وأن يعرض عليك التافه فلا تمنحه من عمرك ما لا يستحق.

واللغو ليس الكلام الباطل وحده، بل كل ما يستهلك الحياة دون أن يبني في الروح معنى، أو في العقل بصيرة، أو في الواقع خيرًا. كم من ساعاتٍ تموت في جدالاتٍ لا تهدي، وتتبع لما لا يعني، وانشغالٍ بأخبار الناس عن أخبار النفس، حتى يصبح المرء ممتلئًا بكل شيء إلا بما خلق له.

والمؤمن لا يعرض عن اللغو تكبرًا على الخلق، بل صيانةً للوقت الذي يعلم أنه قطعةٌ من مصيره. إنه يدرك أن العمر ليس فراغًا ينبغي قتله، بل أمانةٌ ينبغي إحيائها؛ ولذلك لا يدخل كل معركةٍ كلامية، ولا يجيب الصمت عبادة، وبعض الإعراض نجاة، وبعض الأبواب لا يُغلقها المؤمن خوفًا، بل احترامًا لرسالته.

ثم تقول السورة: (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ).

وهنا يخرج الإيمان من صفاء الداخل إلى أثره في الخارج. فالمؤمن لا يكتفي بأن يكون طاهر الشعور، بل يجعل طهارته خيرًا يصل إلى غيره. والزكاة في معناها الواسع تطهيرٌ ونماء: تطهير المال من شح النفس، وتطهير النفس من عبادة المال، وتنمية الحياة بالتكافل والرحمة.

إن اليد التي تمتد بالعطاء تعلن أنها تحرّرت من وهم الملك؛ لأنها أدركت أن ما فيها وديعةٌ من الله، وأن الفقير لم يأت ليأخذ منها فضلًا زائدًا، بل جاء ليستوفي حقًا جعله الله له. ولهذا لا تكون الزكاة نقصًا في المال، وإنما تحريرًا له من القسوة، وتحريرًا لصاحبه من العبودية لما يملك.

بعد ذلك تنتقل السورة إلى موطنٍ آخر من مواطن الامتحان، حيث لا تكفي الشعارات، وحيث تظهر قدرة الإنسان على قيادة رغبته: **(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ).**

الإيمان هنا ليس خصومةً مع الفطرة، بل تهذيبًا لمسارها. فالإسلام لا يقتل الرغبة، وإنما ينقذها من أن تتحوّل إلى قوةٍ عمياء تهدم صاحبها والآخرين. والحفظ كلمةٌ شديدة الجمال؛ لأنها توحى بأن العقّة ليست حرمانًا، بل حراسةً لشيءٍ نفيس: حراسة القلب من الابتذال، والجسد من الامتهان، والأسرة من التصدّع، والأنساب من الفوضى، والحب من أن يتحول إلى استهلاك.

إن الإنسان حين يستسلم لكل رغبةٍ لا يصير حرًّا، بل يصير عبدًا لما لا يشبع. الحرية الحقيقية ليست أن تفعل كل ما تشتهي، بل أن تظل قادرًا على اختيار ما يرضي الله حين تشتد الشهوة. فليس القوي من لا يشعر بجذب الرغبة، وإنما من يشعر بها ثم لا يسمح لها أن تنتزع زمام روحه.

ثم تكشف السورة عن بُعد اجتماعيٍّ عظيم في الشخصية المؤمنة: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ).

قالت: (رَاعُونَ)، ولم تقل مؤثون فحسب؛ لأن الأمانة لا تحتاج إلى لحظة أداء فقط، بل إلى رعاية ممتدة. والراعي يظلّ يقظاً لما اسُئِرعي عليه، يحوطه من التلف، ويحميه من التفريط، ويشعر أن ضياعه ضياعٌ لشيء من شرفه.

والأمانات كثيرة: الدين أمانة، والعقل أمانة، والكلمة أمانة، والمنصب أمانة، وأسرار الناس أمانة، وقلوب من أحبوك أمانة. وقد يكون الإنسان أميناً على المال، خائناً للكلمة؛ أو وفياً بالعقود المكتوبة، غادراً بالوعود التي لا شهود عليها. أما المؤمن فتراقبه حقيقة لا تغيب: أن الله كان شاهداً حين لم يكن هناك شاهد.

ومن هنا يُبنى المجتمع المؤمن؛ لا بكثرة الحديث عن الأخلاق، بل بوجود إنسانٍ يمكن الاطمئنان إليه. إذا وعد لم يجعل وعده وسيلةً لتسكين اللحظة، وإذا أوُتمن لم يستغل غياب الرقيب، وإذا تولى أمراً لم يحول حق الجماعة إلى غنيمةٍ خاصة. إن الأمانة هي الوجه الاجتماعي للتوحيد؛ لأن من علم أن الله يراه استحي أن يخون عباده.

ثم تعود السورة إلى الصلاة مرةً أخرى: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ).

بدأت الصفات بالصلاة وانتهت بالصلاة، وكأن بقية الخصال محفوظة بين صلاتين. بدأت بالخشوع، وهو روح الصلاة، وانتهت بالمحافظة،

وهي دوامها وانضباطها. فلا يكفي أن تشرق الروح في لحظة ثم تنطفئ؛ فالإيمان ليس ومضةً عابرة، بل وفاءً يتكرر كل يوم.

وفي الفرق بين الموضعين لطيفةٌ بديعة: قال أولاً: (فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)، لأن الخشوع حالة تقع داخل الصلاة؛ ثم قال: (عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)، لأن المحافظة إحاطةٌ بها من الخارج: بمواقبتها، وشروطها، ودوامها، وعدم التفريط فيها. فكان المؤمن يحفظ للصلاة جسدها بالمحافظة، وتحفظ الصلاة لقلبه روحه بالخشوع.

وبعد أن اكتملت الصورة، جاء الإعلان الثاني: (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)  الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

سمّاهم وارثين؛ لأن الوارث ينال ملكاً مستقراً لا يخشى أن يُنتزع منه. لكن ما أعجب هذا الميراث: لم يرثوا بيتاً يتهدّم، ولا أرضاً تتنازعها الأيدي، ولا مالاً يتقلب بين الربح والخسارة؛ لقد ورثوا الفردوس، أعلى منازل الجنة وأكرمها.

إنها المفارقة التي تقلب موازين الدنيا: قد يبدو المؤمن هنا قليل الحظ، محدود النصيب، لا يملك من متاع الأرض إلا اليسير، لكن السورة تزيح ستار الغيب لتريه حقيقة ملكه: إنه من ورثة الفردوس. وما ضرّ من كُتِبَ له الخلود في الجنة أن ضاقت عليه غرفةٌ في الدنيا؟ وما الذي فاتته من حُرْم بعض المتاع، إذا كان الله قد ادّخر له ما لا تنفذ لذّته ولا ينقطع أمانه؟

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

هكذا ترسم الآيات الأولى هوية المؤمن: قلبٌ يخشع، وعمرٌ يُصان، ومالٌ يتركَّى، وشهوةٌ تُحفظ، وأمانةٌ تُرعى، وصلاةٌ لا تُضيّع. إنها ليست صفاتٍ متناثرة، بل هندسةٌ متكاملة للإنسان: صلته بالله، وصلته بنفسه، وصلته بالناس.

وبذلك يتجلى المعنى العميق لمطلع السورة: لم يفلح المؤمنون لأنهم حملوا اسمًا، بل لأن الإيمان حملهم؛ نقلهم من الفوضى إلى الانضباط، ومن الاستهلاك إلى التزكية، ومن الغفلة إلى الخشوع، ومن خيانة اللحظة إلى رعاية العهد.

فالإيمان الذي لا يغيّر هيئة الحياة ما يزال دعوى تنتظر برهانها؛ أما الإيمان الذي يصنع هذا الإنسان، فقد شهد الله له منذ البداية: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ... رحلة الإنسان من خفاء التكوين إلى جلال المصير

بعد أن رسمت السورة صورة المؤمنين وهم يصعدون بأعمالهم نحو الفردوس، عادت بهم فجأة إلى الأرض التي ابتدأ منها خلقهم: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ).

إنها عودةٌ ضرورية؛ لأن الإنسان إذا رأى مقامه ونسي أصله، تسأل إليه الكبر من باب النعمة. ولذلك تذكره السورة، وهو يسمع أنه من ورثة الفردوس، بأن أول مادته طين. ليس لتهيئته بأصله، بل لتحميه من الغرور بمصيره؛ فبين الطين والفردوس تمتد معجزة الهداية، ولا يعبر هذه المسافة إلا من عرف فضل الله عليه.

والسُّلالة هي ما استُئِلَّ برفقٍ ودقة، كأن الخلق لم يبدأ من كتلةٍ مهملة، بل من خلاصةٍ منتزعة بحكمة. والطين الذي تطؤه الأقدام صار، بإرادة الله، إنساناً يعي ويفكر، ويحب ويكره، ويتألم ويرجو، وينظر في الكون ثم يسأل عن سر وجوده. إن عظمة الإنسان ليست في مادته، بل في اليد الإلهية التي سوّتها، وفي التكريم الذي ارتفع بها من صمت التراب إلى وعي الأمانة.

وفي هذا الأصل الطيني سرٌّ من أسرار طبيعتنا: فينا من الأرض ثقلها، ومن حاجاتها ضعفها، ومن عناصرها قابليتنا للنماء والذبول؛ لكن الله لم يترك الإنسان أسير المادة، بل منحه السمع والبصر والفؤاد، وفتح له

طريقاً يستطيع به أن يسمو فوق منشئه. فالإنسان لا يُذم لأنه من طين، وإنما يُذم حين يرضى أن يعيش بمنطق الطين وحده؛ يأكل ويشتهي ويتكاثر، ثم لا يرفع رأسه إلى السماء.

ثم تنتقل السورة من أصل النوع الإنساني إلى سرّ تكوّن كل فردٍ من أفراده: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ).

نطفةً ضئيلة، لا يرى فيها وجه، ولا تُسمع لها لغة، ولا يعرف الناظر إليها أيّ إنسانٍ ستصير. لا تحمل في ظاهرها شيئاً من ملامح المستقبل، ومع ذلك أودع الله فيها قصةً كاملة تنتظر الإذن لتتكشّف: لون العينين، ونبرة الصوت، وخطوط الوجه، واستعدادات العقل، وملامح شخصية ستدخل العالم وتترك فيه أثراً.

وما أبلغ قوله: (فِي قَرَارٍ مَكِينٍ). فالإنسان الذي سيخرج إلى عالم الاضطراب بدأ رحلته في قرار؛ والذي سيقضي حياته يبحث عن الأمان، أحاطه الله بالأمان قبل أن يعرف معنى الخوف. لم يكن قادراً على أن يحمي نفسه، فحُفظ؛ ولا على أن يطلب غذاءه، فُرُزق؛ ولا على أن يشرح حاجته، فُدبّرت حاجته قبل أن يكون له لسان.

هنا يتجلّى لطف الله سابقاً على وعي الإنسان به. فنحن لا نبداً علاقتنا بالله حين نعرفه، بل نكتشف بعد معرفته أنه كان يرعانا قبل أن نعرف أسمائنا. كانت رحمته أقدم من دعائنا، وعنايته أسبق من قدرتنا على الشكر، وتدبيره يحيط بنا يوم لم نكن نملك حتى أن نقول: يا رب.

ثم تفتح السورة أمامنا مشهد التكوين المتدرج: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا عُظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا).

إنه إيقاعٌ متتابع، مرحلةٌ تسلم الإنسان إلى مرحلة، ولا شيء يقفز فوق شيء. القادر على أن يقول له: كن، فيكون، شاء أن يكونه أطواراً؛ ليعلمنا أن التدرج ليس نقصاً في القدرة، بل مظهرٌ من مظاهر الحكمة.

وكثيراً ما يستبطن الإنسان اكتمال نفسه، ويريد أن يبلغ نضجه في لحظة، وأن تُشفى جراحه دفعةً واحدة، وأن تتحقق غاياته بلا زمن. لكن الخالق الذي بنى جسده طوراً بعد طور، يبني كثيراً من أقداره بالطريقة نفسها. ليست كل فترة غامضة تعطلًا؛ فقد يكون الله فيها يصنع شيئاً لم تظهر ملامحه بعد. وما يبدو لك مرحلةً صغيرة قد يكون شرطاً لازماً للصورة التي ستأتي بعدها.

وفي تكرار قوله: (خَلَقْنَا) إيقاظٌ للقلب من خداع الألفة؛ لأن تعاقب المراحل قد يجعل الناظر يظن أن الأشياء تصنع نفسها بنفسها. لكن الآية تنسب كل انتقالٍ إلى الخالق: النطفة لا تقرر أن تصبح علقه، والعلقة لا تعرف طريقها إلى المضغة، والمضغة لا ترسم لنفسها الهيكل، والعظام لا تطلب كسوتها من اللحم. إنها إرادة الله تعمل في الخفاء، وتقود المادة الصامتة إلى هيئة الإنسان.

تتكون العظام في ظلمةٍ لا تمتد إليها يد أم، ولا تعرف تفاصيلها عين أب، ثم تُكسى لحماً في تناسقٍ بالغ، وتتشعب الأعصاب، وتنتهي الأعضاء لوظائف لم تمارسها بعد. تُصنع العين في مكانٍ لم تر فيه نوراً، وتنتهي

الرئة في عالم لم تستنشق فيه هواءً، وتتشكّل القدم قبل أن تكون هناك أرضٌ تمشي عليها.

وكان تكوين الإنسان نفسه يهمس بحقيقة المأل: إن الذي صنع لك أعضاءً لعالم لم تدخله بعد، قادرٌ أن يُعدّك لعالم لم تره بعد. وكما كانت الحياة خارج الرحم غيباً عن الجنين، فالآخرة غيبٌ عن الإنسان؛ وعدم رؤيتنا لها لا ينفي وجودها، بل يكشف ضيق المرحلة التي ننظر منها.

ثم تأتي العبارة التي تنقل المشهد من ترتيب الأعضاء إلى ظهور الكائن الإنساني في تمام صورته: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ).

هنا لا تقول الآية: ثم أكملناه، وإنما: (أَنْشَأْنَاهُ)؛ لأننا أمام ظهورٍ مدهش، أمام انتقالٍ يجعل هذا التكوين شيئاً آخر. لقد صار الجسد مهياً لحياة لها وعيها وإدراكها واستعدادها للتكليف. صار الكائن الذي كان مادةً خفية قادراً على أن يعرف ربّه، ويحمل الأمانة، ويختار بين الهدى والضلال.

إن المسافة بين النطفة والإنسان ليست مسافة حجمٍ فحسب، بل مسافة معنى. فالنطفة لا تكتب قصيدة، ولا تتأمل نجمة، ولا تبكي لفقد حبيب، ولا تسجد لله. فمن أين جاء هذا العالم الداخلي الهائل؟ من أين جاءت الذاكرة، والخيال، والضمير، والحنين؟ إن تحليل المادة يصف لنا بعض مسار البناء، لكنه لا ينتزع من المعجزة جلالها؛ لأن معرفة المراحل لا تعني امتلاك سرّ المنشئ.

ولهذا تنفجر الآية بالتسبيح الممزوج بالتعظيم: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

إنها ليست نتيجةً ذهنية باردة، بل دهشة إيمانية أمام هذا الإبداع. كأن القلب بعدما تابع التحولات لم يعد قادرًا على الصمت، فقال: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ). تعالى في قدرته، وعظم في حكمته، واتسع خيره، وجلّ صنعه عن أن يكون عبثًا أو مصادفةً عمياء.

ومن لطائف السياق أن الله لم يطلب من الإنسان أن ينظر إلى أبعد المجرات ليهتدي إليه، بل دعاه أن ينظر إلى نفسه. فأقرب المعجزات إلينا أكثرها غيابة عن انتباهنا؛ نحمل في أجسادنا آلاف الآيات، ثم نبحث عن الدهشة في البعيد. يخفق القلب في صمت، ويجري الدم في مسالكه، وتستقبل العين الضوء، ويحوّل العقل الإشارات إلى معنى، ونحن نعيش وسط هذا الإعجاز كما يعيش السمك في الماء؛ تحببه الألفة عما يحيط به.

لكن السورة لا تسمح للإنسان أن يسكر بجمال التكوين وينسى نهاية الجسد، فتقول في انعطافة حاسمة: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ).

بعد هذا البناء الدقيق، وبعد أن يستوي الجسد وتكتمل قواه، يأتي الموت. والعبارة شديدة الصراحة؛ فلا رتوش لغوية تخفف الحقيقة، ولا مهرّب من المواجهة: (لَمَيِّتُونَ).

لقد قالت الآية: (بَعْدَ ذَلِكَ)، وكأنها تشير إلى كل ما سبق من أطوار وعناية وتكوين: بعد ذلك كله ستموتون. فالصحة لا تلغي الموت، واكتمال الجسد لا يمنح الخلود، وشدة الحياة التي تسري فيه لا تمنع لحظةً يسكن فيها كل شيء.

غير أن الموت في منطق السورة ليس هدمًا لعبث، وإلا لكان هذا الإبداع كله منتهيًا إلى لا شيء. إن الذي اعتنى بالنطفة في ظلمات الرحم لم يخلق الإنسان ليلقيه في ظلمة العدم. ولذلك يأتي بعد الموت مباشرة: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ).

ما أهدأ العبارة وما أعظمها؛ كأن البعث خطوة تالية في تسلسل الخلق، لا معضلة تستحق التردد. نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظام، فلحم، فخلق آخر، فموت، فبعث. والذي تابعك في التحولات الأولى لن يعجز عن التحول الأخير.

إن إنكار البعث كثيرًا ما ينشأ من نظر الإنسان إلى قدرته هو، لا إلى قدرة خالقه. يرى العظام وقد بليت فيقيس إعادتها على عجز يده، وينسى أنه لم يكن شيئًا قبل أن يُخلق. ولو تأمل البداية حقًا، لهان عليه التصديق بالنهاية؛ فالذي أنشأ من غير مثالٍ سابق، أقدر على الإعادة بعد أن صار للخلق مثال.

وهكذا تصل السورة بين علم الأجنة وعلم المصير، بين الرحم والقبر، بين الولادة والقيامة. الرحم خفاءً يعقبه خروج، والقبر خفاءً يعقبه بعث. وكما لم يكن مكث الجنين في ظلمات الرحم نهاية قصته، لن يكون مكث الإنسان في ظلمة القبر نهاية وجوده.

لقد بدأت الرحلة من قبضة طين، ثم مرّت بقطرة لا تكاد تُرى، وانتهت بإنسانٍ سيقف بين يدي الله. وما بين الأصل والمآل تتهاوى أوهام الكبر: كيف يتعالى من كان نطفة؟ وكيف يبأس من رعاه الله في كل طور؟

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وكيف يظن أنه متروكٌ سدى، وقد شهدت كل خليةٍ فيه أن وراءها علماً
وتقديرًا؟

إن التأمل في الخلق لا يمنحنا معرفةً بأجسادنا فحسب، بل يردّنا إلى
حقيقتنا: نحن صنعة الله، نحيا بعنايته، ونموت بأجله، ونعود بأمره. وما
الجسد إلا الصفحة الأولى من قصةٍ لن تُقرأ خاتمتها كاملةً إلا يوم البعث.

طَرَائِقَ فَوْقَكُمْ... حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ بَيْتَهُ الْكَوْنِي

بعد أن حدّثتنا السورة عن بناء الإنسان في ظلمات الرحم، رفعت أبصارنا إلى البناء الأكبر الذي يحتضن حياته. فالذي أنشأ الجسد لم يلق به في فراغ، بل هيأ له كونًا صالحًا لوجوده؛ سقفاً فوقه، وماءً ينزل إليه، وأرضاً تستقبله، ونباتاً يغذّيه، وأنعاماً تخدمه، وسفناً تحمله.

إن خلق الإنسان لا يكتمل بتكوين أعضائه وحدها؛ فالعين تحتاج إلى نور، والرئة تحتاج إلى هواء، والجسد يحتاج إلى ماء وغذاء، والقدم تحتاج إلى أرض، والعقل يحتاج إلى عالمٍ منتظم يستطيع أن يقرأه. ولذلك جاء الكون متوافقاً مع حاجات الإنسان، كأن الخارج قد أعدّ لاستقبال الداخل، وكأن الخليقة كلّها بيئتُ سبق ساكنه إلى الوجود.

تقول السورة: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ).

سمّاها (طَرَائِقَ)، وفي اللفظة إحياءً بالامتداد والنظام والتراكب؛ سماواتٌ بعضها فوق بعض، لا اضطراب فيها ولا تصادم. يرفع الإنسان رأسه فلا يرى أعمدةً تحملها، ولا شقوقاً تمرّقها، وإنما يرى بناءً مهيباً يعلوه في صمت، ويظلّ قائماً بأمر الله.

لكن أدفاً ما في الآية ليس ذكر البناء وحده، بل قوله: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ).

إنها جملةٌ تكفي لتسند قلبًا أوشك أن يسقط من شدة الشعور بالوحدة. فالكون واسع، والإنسان فيه صغير، وقد يخيل إليه أنه نقطةٌ ضائعة في هذا الامتداد المذهل؛ فتأتي الآية لتقول: لست منسيًا. الذي خلق السماوات فوقك لا تحببه عظمتها عنك، ولا يشغله تدبير الأفلاك عن خفقة قلبك، ولا تضيع حاجتك بين حاجات الخلائق.

كم يحتاج الإنسان إلى أن يسمع هذه الحقيقة حين تتأخر الإجابة، وتضيق الطرق، ويبدو العالم كأنه لا يشعر بألمه: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ). قد تخفى شكواك عن أقرب الناس إليك، وقد تعجز اللغة عن حمل ما في صدرك، لكن شيئًا منك لا يغيب عن الله. إن غياب الفرج عن عينك لا يعني غياب العناية عن حياتك؛ فقد يكون التدبير جاريًا في مواضع لا تراها، كما كان خلقك يجري في رحم أمك وأنت لا تعلم.

ثم تهبط السورة من طرائق السماء إلى قطرة الماء: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ).

إنه الماء الذي نراه بسيطًا لأنه مألوف، بينما تقوم عليه كل تعقيدات الحياة. لا لون له، لكنه يمنح الألوان للحدائق؛ ولا طعم غالبًا له، لكنه يدخل في كل طعم؛ ولا يدعي حضورًا، ومع ذلك إذا غاب مات كل حاضر.

قالت الآية: (بِقَدَرٍ)؛ لأن الرحمة حين تأتي من الله تأتي بعلم وميزان. فلو انقطع الماء هلك الناس، ولو نزل عليهم بلا تقدير أهلكهم. ليست النعمة في وجود الشيء فحسب، بل في مقداره، وموضعه، ووقته، وطريقة وصوله. وكثير مما نعدّه حرمًا قد يكون في حقيقته حمايةً من

وفرة لا نحتملها؛ فالمطر نفسه الذي يحيي الأرض قد يغرقها إذا جاوز قدره.

ثم قال : (فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ). والماء بطبيعته جارٍ متفلّت، لكن الله جعل له في باطن الأرض مساكن، وأودعه في طبقاتها، وخزّنه للأحياء قبل أن تمتد إليه دلاؤهم. يشرب الإنسان ماءً ربما مكث زمناً طويلاً في جوف الأرض، أعدّ له قبل أن يعرف العطش، وسبق إليه عبر نظام لم يشارك في صنعه.

وفي لفظ (أَسْكَنَاهُ) إحساسٌ بالأمان؛ فالماء ليس ضيقاً عابراً على الأرض، بل رزقٌ أسكن فيها ليستمر به وجودها. غير أن الآية، وهي تفتح أمامنا باب النعمة، تفتح باب الخوف أيضاً: (وَأِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ).

فالذي أنزل الماء قادرٌ على أن يذهبه، والذي أسكنه قادرٌ على أن يبعده إلى أعماقٍ لا تبلغها يد، أو يجعله أجاباً لا يُنتفع به. وهكذا يعالج القرآن غفلة الاعتقاد؛ لأن النعمة حين تطول إقامتها في حياتنا نتوهم أنها حقٌ طبيعي لا يمكن أن يزول.

كم من نعمة لا نراها إلا حين تفارقنا! لا يشعر المرء بجمال العافية حتى يمرض، ولا بسعة الحركة حتى يعجز، ولا بدفء الأنس حتى يوحش المكان. والقرآن يعلم القلب أن يشكر قبل الفقد، وأن يبصر النعمة وهي حاضرة، لا أن ينتظر غيابها حتى يعرف مقدارها.

ثم يأتي الماء بثمرته: (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ).

لاحظ قوله: (لَكُمْ). يتكرر الخطاب ليوظ في الإنسان معنى العناية الشخصية؛ فهذه الجنات ليست مجرد مشهدٍ طبيعي جميل، بل رزقٌ موجهٌ إلى الإنسان. الماء ينزل، والأرض تتفتح، والجذور تمتد في الظلمة، والأغصان تصعد نحو الضوء، والثمرة تنضج، حتى تصل في النهاية إلى يدٍ لم تصنع شيئاً من أسرارها.

يأكل الإنسان الثمرة في دقائق، لكن وراء تلك اللحظات رحلةً طويلة من التدبير: تربةٌ وهيئت، وماءٌ نزل، وشمسٌ أشرقت، وليلٌ برد، وجذورٌ امتصت، وأوراقٌ صنعت غذاءها في صمت. إن اللقمة الواحدة تختصر اجتماع قوى كثيرة سخرها الله؛ ولهذا كان البدء باسم الله والحمد بعد الطعام اعترافاً بأننا لم نكن آخر صانعي النعمة، بل آخر مستقبلها.

وخصت الآية النخيل والأعناب لما فيهما من المنافع والجمال وكثرة الثمر، ثم وسعت الدائرة فقالت: (لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ). فالله لا يقيم حياة الإنسان على الحد الأدنى من البقاء فقط، بل يفتح له أبواب التذوق والبهجة. كان يكفي لاستمرار الجسد غذاءٌ واحد، لكن الرحمة نوّعت الألوان والروائح والمذاقات؛ لتقول للإنسان إن الخالق لم يرد له أن يبقى حياً فحسب، بل أراد أن يرى في الرزق أثر الجمال والكرم.

ثم تشير السورة إلى شجرةٍ أخرى ذات حضورٍ خاص: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ).

إنها شجرة الزيتون، تخرج من أرضٍ ارتبطت بالوحي، وتمنح الناس زيتًا وغذاءً. وفي صورتها اجتماع النور والقوت؛ فالزيت كان يُستضاء به، ويؤكل ويُنتفع. كأن الشجرة تحمل في ثمرتها حاجة الجسد إلى الطعام، وحاجة الطريق إلى الضوء.

وتعبير (تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ) يجعل العطاء كأنه يصعد من باطن الأرض داخل الأغصان حتى يستقر في الثمرة. أيّ مختبرٍ خفي يحول الماء والتراب إلى هذا الزيت؟ وأيّ قدرةٍ تجعل التربة الواحدة تُخرج ثمارًا مختلفة في مذاقها وروائحها وخصائصها؟

الأرض لا تملك وحدها هذا التنوع، والماء واحد، والشمس واحدة؛ وإنما وراء اختلاف الثمار إرادةٌ تقول لكل شجرة: أخرجي سرّك الذي أودعته فيك.

ثم تنقلنا السورة من عالم النبات إلى عالم الحيوان: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ○ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ).

لم تقل: وإن لكم في الأنعام منفعة، بل قالت: (لَعِبْرَةٌ). فالأنعام ليست مجرد موارد مسخرة، بل آياتٌ تمشي أمام الإنسان. يتحول ما في بطونها إلى لبنٍ سائغ، وتمنح اللحم والجلد والصوف، وتحمل الأثقال، وتخضع للإنسان مع أنها قد تكون أقوى منه جسدًا.

والعبرة انتقالٌ من ظاهر الشيء إلى حقيقته؛ أن لا تقف عند اللبن وتشربه، بل تعبر منه إلى المنعم؛ ولا تنتظر إلى الدابة بوصفها آلةً

صامتة، بل بوصفها مخلوقاً سخره الله، وجعل فيه منافع مترابطة. فالمؤمن لا يستهلك النعمة دون أن يقرأ رسالتها.

ثم تجمع الآية بين وسيلتين للحمل : (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ).

على ظهور الأنعام في البر، وعلى السفن في البحر. وكأن الإنسان محمولٌ في رحلته كلها؛ يُحمل جنيناً في الرحم، وطفلاً على الأذرع، ومسافراً على الدواب والسفن، ثم يُحمل يوماً على الأعناق إلى قبره. وما أكثر ما يتوهم الاستقلال وهو في الحقيقة ينتقل من حملٍ إلى حمل، ومن لطفٍ إلى لطف.

وفي اقتران الأنعام بالفلك إشارة إلى أن التسخير يشمل ما خلقه الله مباشرةً، وما ألهم الإنسان أن يصنعه. فالسفينة من عمل اليد البشرية، لكن الله هو الذي خلق مادتها، وعلم الإنسان صناعتها، وجعل الماء يحملها، والرياح تدفعها، والقوانين تحفظ توازنها. لذلك لا تخرج منجزات الإنسان عن سلطان الله؛ فالإنسان يركب الأسباب، لكنه لم يخلق خصائصها.

هكذا تضع السورة الإنسان في قلب شبكة هائلة من النعم: فوقه سموات، ومن حوله عناية، ومن السماء ماء، وفي الأرض خزائن، ومن الماء جنات، وفي الشجر غذاء ونور، وفي الأنعام شراب ومنافع، وفي البر والبحر وسائل تحمل خطاه.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

غير أن السؤال الذي يلوح خلف هذه المشاهد كلها هو: ماذا يفعل الإنسان بهذه العناية؟ هل تقوده النعمة إلى معرفة المنعم، أم تزيده غفلة؟ هل يرى الكون بيتًا للعبادة والشكر، أم مستودعًا للاستهلاك والاستحواذ؟

من هنا سنتنقل السورة إلى قصص الأنبياء؛ لأن المشكلة لم تكن يومًا في قلة الآيات، بل في القلب الذي يمر بها ولا يعبر منها إلى الله. لقد أحاط الخالق الإنسان بدلائل ربوبيته، ثم أرسل إليه رسله ليقولوا له: إن الذي خلقتك ورزقك وحملك هو وحده المستحق أن تعبد.

وسيبدأ النداء بصوت نوح عليه السلام، الصوت القديم المتجدد في تاريخ البشرية: **(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ).**

هناك يبدأ الصراع الحقيقي؛ حين تتحول نعم الكون من مشاهد مألوفة إلى حجج على التوحيد، وحين يُطلب من الإنسان أن يحرّر قلبه من كل معبودٍ سوى الله.

صَوْتُ نُوحٍ... حين تقف الحقيقة وحيدةً أمام غرور الملأ

بعد أن عرضت السورة آيات الله في تكوين الإنسان، وإنزال الماء، وإنشاء الجنات، وتسخير الأنعام والفلك، انتقلت إلى التاريخ البشري لتكشف مفارقةً مؤلمة: أن الإنسان قد يعيش محاطاً بآيات الخالق، ثم يعبد غيره؛ وقد يشرب رزقه، ويسكن أرضه، ويستظل بسمائه، ثم يجادل في حقه أن يكون وحده معبوداً.

ومن هنا يرتفع صوت نوح عليه السلام: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ).

إنها الكلمة التي افتتحت بها النبوات مواجهتها مع انحراف الإنسان: (اعْبُدُوا اللَّهَ). لم يبدأ نوحٌ بتفاصيل الشريعة، ولا بترتيب شؤون الحياة الجزئية؛ لأن الفروع لا تستقيم إذا فسد الأصل، والحركة كلها تنحرف إذا اختلَّ مركزها. كان لا بدَّ أولاً أن يتحرر القلب من الآلهة المتكاثرة، وأن يعود إلى ربه الواحد.

ولم يقل نوح: يا أعدائي، مع أنهم كذبوه وآذوه، بل قال: (يَا قَوْمِ). ظلَّ يحفظ رابطة القرب في لغة الدعوة، وكأن التكذيب لم ينزع من قلبه الشفقة عليهم. فالنبي لا يقف أمام الضالين متشفياً بسقوطهم، بل يقف بينهم كمن يرى النار تمتدَّ إليهم، فيناديهم قبل أن تصل.

إن كلمة (يَا قَوْمِ) تحمل حزن المحب، لا غضب المنتصر لنفسه. هو واحدٌ منهم في النسب، لكنه يريد أن يرفعهم إلى نسبٍ أعلى: عبودية الله.

يذكّرهم بأنهم جماعته، وأن خلاصهم يعنيه، وأنه لا يطلب أن ينتزعهم من هويتهم، بل أن ينفذ هويتهم من الخضوع لما لا يستحق الخضوع.

ثم يضع أمامهم الحقيقة في صفاتها الكامل : (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

ليست القضية أن الله أفضل من آلهتهم، بل إنه لا إله سواه. فالتوحيد لا يقبل أن يُضاف الله إلى قائمة المعبودات، ولا أن يُمنح المكانة الأولى مع بقاء شركاء صغار في القلب. إنه تحريرٌ كامل للإنسان من كل سلطة تدّعي على روحه حقًا لا يملكه إلا الخالق.

وقد تتغيّر أسماء الأصنام، لكن بنياتها تبقى. فليس الصنم دائمًا حجرًا منصوبًا؛ قد يكون شخصًا تُطاع كلمته في معصية الله، أو مألًا تُداس لأجله القيم، أو مكانةً يبيع الإنسان ضميره كي لا يفقدها، أو جماعةً يصير ولاؤه لها أقوى من ولائه للحق. وكل ما استولى على القلب حتى صار الإنسان يعصي الله إرضاءً له، فقد أخذ من معنى العبودية نصيبًا.

ولهذا ختم نوحٌ نداءه بقوله: (أَفَلَا تَتَّقُونَ). فالتوحيد ليس معلومةً عن عدد الآلهة، بل يقظةٌ تجعل الإنسان يتقي أن يمنح حق الله لغيره، أو يقف بين يديه بقلبٍ مورّع بين أربابٍ متفرقين.

لكن المألّ لم يناقشوا الحجة، بل انصرفوا إلى الطعن في حاملها: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ).

وهذه من أقدم حيل الباطل: حين يعجز عن إسقاط الفكرة بالدليل، يلوث نية صاحبها. لم يقولوا: ما البرهان على بطلان التوحيد؟ بل قالوا: إنه يريد أن يتفضل عليكم، أي يتعالى ويطلب السيادة.

إنهم يقيسون النبي على نفوسهم؛ لأن من لا يعرف العمل لله يصعب عليه أن يصدق أن إنساناً يمكن أن يتحمل العناء بلا مطمع. وحين تمتلئ النفس بحب النفوذ، ترى كل حركة إصلاحية مشروع نفوذ؛ وحين تكون المصلحة هي اللغة الوحيدة التي تفهمها، تفسر التضحية نفسها بوصفها صفقة خفية.

والملا هم المتصدرون الذين تملأ هيباتهم عيون الناس، ويملا نفوذهم فضاء المجتمع. غالباً ما يقفون أولاً في وجه الرسائل؛ لأن التوحيد لا يهدد أصنام المعابد فقط، بل يهدد الامتيازات التي تُبنى على استعباد البشر. فإذا علم الناس أن لا إله إلا الله، فلن يركعوا لهيبة متكبر، ولن يمنحوا أحداً حق التشريع في الضمائر، ولن يقبلوا أن يتحول المال أو النسب أو السلطة إلى ربوبية مقتنعة.

لقد قال الملا: (بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)، وكأن بشرية الرسول حجة عليه، مع أنها وجه الحكمة في إرساله. كيف يهتدي البشر برسولٍ لا يعرف جوعهم وخوفهم وضعفهم؟ وكيف يكون قدوة لهم من لم يعيش شروط حياتهم؟ لقد أراد الله للرسالة أن تمشي على قدمين، وأن تتحول القيم إلى سيرة تُرى؛ فكان الرسول بشراً ليقول للناس إن الطاعة ممكنة داخل الطبيعة الإنسانية، لا خارجها.

ثم قالوا: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ).

إنهم لا ينكرون المشيئة الإلهية ظاهراً، لكنهم يستخدمونها ذريعة لرفض أمر الله. وهذه حيلة فكرية تتكرر في كل عصر: يستعمل الإنسان فكرةً صحيحة في موضع باطل، ويحوّل الحديث عن قدرة الله إلى اعتراض على اختيار الله.

ثم احتموا بالماضي: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ). ولم يسألوا: أحقّ ما يقول؟ بل سألوا: هل قاله الآباء؟ وهكذا يتحول التاريخ من مصدر خبرة إلى سجن للعقل، ويتحوّل احترام الأسلاف إلى تقديس يمنع مراجعة ضلالهم.

الحق لا يصير باطلاً لأن الآباء جهلوه، والباطل لا يصير حقاً لأن الأجيال توارثته. إن كثرة الأقدام على طريق ما لا تدل بالضرورة على أنه يوصل إلى الله؛ فقد تتوارث الجماعات خطأً طويل العمر، حتى يصبح قدمه هو الدليل الوحيد عليه.

وحين لم يجدوا في دعوة نوح اضطراباً يطعنون به، اتهموا عقله: (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ).

ما أشدّ المفارقة: أعقل الناس بينهم يُتهم بالجنون؛ لأنه لم يشاركهم جنون العبادة لغير الله. إن المجتمع المختلّ قد يجعل سلامة البصيرة شذوذاً، ويعتبر من يقاوم انحرافه مريضاً؛ لأن اتفاق الناس على الوهم يمنحهم شعوراً زائفاً بأنهم معيار العقل.

قالوا: (فَنَرَبُّوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)؛ أي انتظروا حتى يذهب أثره، أو يدركه الموت، أو تخمد دعوته. يظن الباطل أن الحق نوبةً عابرةً يكفي أن ينتظر انطفاءها، ولا يدري أن الكلمات المتصلة بالله قد يضعف حاملوها، لكنها لا تموت.

وحين بلغ الرفض مداه، رفع نوحُ شكواه إلى الله: (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ).

إنها كلمات قليلة، لكنها تحمل عمراً طويلاً من الصبر. لا تفصل الآية سنوات الدعوة، ولا تروي كل سخرية سمعها، ولا كل بابٍ أغلق في وجهه، بل تختصر ذلك كله في نداء: (رَبِّ انصُرْنِي).

والنبي حين يطلب النصر لا يطلب انتصار ذاته المجروحة، بل انتصار الحقيقة التي كُذِّبت. قال: (بِمَا كَذَّبُونَ)؛ فالقضية ليست أنهم لم يمنحوه منزلة، وإنما أنهم ردّوا رسالة الله بعد أن قامت عليهم الحجة.

وفي الدعاء أدب العبد الذي يعلم أن قوته مهما بلغت لا تنشئ النصر. لقد دعا نوحٌ زمناً طويلاً، واستنفذ جهده، لكن السفينة لا تُبنى بالجهد وحده، والماء لا ينفجر من الأرض بأمر بشر. عندما تبلغ الأسباب البشرية نهايتها، لا يكون ذلك نهاية الطريق؛ بل قد يكون الموضع الذي يبدأ فيه ظهور القدرة الإلهية على نحوٍ لا يتوقعه الناس.

فجاء الجواب: (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا).

لم يقل له : انتظر السفينة، بل قال : (اصْنَعِ). فالنصر هبةٌ من الله، لكنه لا يعلم المؤمن السكون؛ الوعد لا يعفي من العمل، والتوكل لا يلغي المطرقة والخشب والتخطيط. كان على نوح أن يبني أداة النجاة على أرضٍ لا يبدو فيها ما يستدعي السفينة.

وهنا يظهر معدن اليقين: أن تصنع سفينتك قبل أن ترى الماء، وأن تعمل بوحى الله وإن سخر منك من لا يرى إلا ظاهر اللحظة. فالمؤمن لا يشترط على أمر الله أن يفهم كل نتائجه قبل أن يطيعه؛ يكفيه أن يعرف مصدر الأمر، ثم يمضي.

وأى عزاءٍ في قوله: (بِأَعْيُنِنَا)! كان نوحٌ في أعين قومه موضع سخرية، لكنه كان تحت رعاية الله. وما الذي يضرك أن تسقط من أعين الناس إذا كنت محفوظاً بعين العناية؟ وما قيمة تصفيق الخلق إذا كان طريقك يبعدك عن نظر الرحمة؟

ثم جاءت العلامة الفاصلة: (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ).

يفور الماء من التنور؛ من موضع النار يخرج الماء، وكأن انقلاب المؤلف يعلن أن الأمر قد خرج من قوانين العادة إلى سلطان القدرة. فالذي جعل الماء سبب الحياة يجعله سبب الهلاك، والذي يسكنه في الأرض يأمره أن يفور منها.

أما النجاة فلم تكن فرديةً منغلقة؛ فقد أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين، وأن يحمل أهله المؤمنين. الإيمان لا ينجو وحده ثم يترك الحياة

تنقرض؛ بل يحمل معه بذور العمران الجديد. كانت السفينة مستودعاً لمستقبل الأرض، يحمل فوق الماء إمكان البداية بعد نهاية عالمٍ استنفد فرصته.

ثم جاء النهي المؤلم: (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ).

هناك لحظة ينتهي فيها زمن الجدل، وتُغلق أبواب الإمهال بعد أن ظلت مفتوحة قروناً. ليست الرحمة الإلهية غفلةً عن الظلم، وليست المهلة عجزاً عن العقوبة. لقد أمهلهم الله حتى لم يبق للاعتذار موضع، فلما جاء الحكم لم تعد العاطفة تغيّره.

والآية تقول: (فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا)، لتكشف أن التكذيب ليس رأياً محايداً دائماً، بل قد يكون ظلماً؛ ظلماً للحقيقة، وللنفس، وللناس الذين يصدّونهم عن سبيل الله.

ثم علّم الله نوحاً كيف يستقبل النجاة: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

أول كلمة بعد النجاة ليست الفخر بحسن التدبير، ولا الشماتة بالغارقين، بل (الْحَمْدُ لِلَّهِ). لأن المؤمن يعلم أنه أخذ بالأسباب، لكنه لم يصنع نجاته بنفسه. بنى السفينة، لكن الله هو الذي حملها؛ واختار الطريق، لكن الله هو الذي أنجاه.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

إن النجاة امتحانٌ آخر؛ فقد ينجو الإنسان من الشدة ثم يهلكه الغرور بنجاته. لذلك يحتاج بعد عبور الخطر إلى عبادة الحمد، حتى لا ينسب الفضل إلى ذكائه وحده، ولا يحول المنحة الإلهية إلى بطولةٍ ذاتية.

ثم قال الله : (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ).

ما أجمل هذا الدعاء بعد الطوفان! فالنجاة من المكان القديم لا تكفي، بل لا بد من بركةٍ في المكان الجديد. قد يخرج الإنسان من محنته، لكنه يحمل آثارها في داخله؛ وقد تنتهي العاصفة حوله وتظلّ تضرب في روحه. لذلك لا يطلب نوح مجرد النزول، بل يطلب (مُنْزَلًا مُبَارَكًا)؛ مكانًا تبدأ فيه الحياة من جديد تحت رعاية الله.

وكل انتقالٍ في حياة المؤمن يحتاج إلى هذا الدعاء: انتقاله إلى بيت، أو عمل، أو مرحلة، أو صحبة، أو مشروع. ليست البركة في اتساع المنزل وحده، بل في أن ينزلك الله حيث يزداد قلبك قربًا، ويثمر عملك خيرًا، ويكون وجودك نافعًا.

ثم تختتم السورة مشهد نوح بقولها : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ).

في السفينة آية، وفي الطوفان آية، وفي نجاة المؤمنين آية، وفي هلاك المكذبين آية. لكن التاريخ لا يُروى للتسلية؛ إنه امتحانٌ للسامع أيضًا. فكل من يسمع قصة نوح يُبتلى بموقفه منها : هل يرى فيها قانونًا حيًا، أم حكايةً بعيدة لا تمسه؟

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

إن الطوفان لم يكن ماءً فقط؛ كان لحظة انكشافٍ سقطت فيها جميع ادعاءات القوة. الملاء الذين بدوا سادة الأرض لم يملكوا موضعاً آمناً، والمؤمنون الذين ظهروا ضعفاء صاروا حملة المستقبل.

وهكذا تعلّما السفينة أن الحق قد يبدو صغيراً وسط بحرٍ من التكذيب، لكنه يحمل بذور العالم الآتي؛ وأن الباطل قد يملأ الأرض ضجيجاً، ثم تأتي لحظة لا يبقى من ضجيجهِ إلا العبرة.

لقد نجا نوحٌ ومن معه، لكن مرض التكذيب لم ينتهِ؛ ستتشأ من بعدهم أمم، ويأتيها رسل، وتتكرر الكلمات نفسها، والاعتراضات نفسها، والمصائر نفسها. فكأن البشر يتغيرون في وجوههم، بينما يعيد الغرور إنتاج منطقهِ القديم.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ
الفصل الخامس

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ... الوجوه تتغير والغفلة تعيد كلامها القديم

انطوى الطوفان، ورسى السفينة، وبدأت على الأرض حياة جديدة. وكان المنتظر أن تظل ذاكرة الماء حيّة في الضمائر، وأن تحرس الأجيال من تكرار خطيئة المكذابين؛ لكن الإنسان يملك قدرة عجيبة على نسيان العبرة بعد انقضاء الخطر.

تقول السورة: (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ).

إنها سنة الحياة: يذهب جيل ويأتي جيل، تُطوى أسماء كانت تملأ الأسماح، وتظهر أسماء جديدة تظن أن الأرض بدأت معها. والمشهد يتكرر؛ بيوت تُبنى، وأموال تُجمع، ومواقع نفوذ تتشكل، وأحلام تتضخم، ثم يصبح القرن كله خبراً في جملة: (قَرْنًا آخَرِينَ).

ما أقصر حضور الإنسان في الأرض، وما أطول أوهامه! يعيش كأن الزمان قد استقر له، ثم لا يلبث أن يصير جزءاً من الماضي الذي كان لا يتأمل فيه. وتلك الحقيقة وحدها كافية لتكسر غرور القوة: فليس في الدنيا جيلٌ أصيل الإقامة؛ كلنا عابرون، وإن اختلف طول العبور.

ثم قال الله: (فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ).

ذهب نوح، لكن الكلمة لم تذهب. تغير الرسول، وبقيت الرسالة؛ وتبدلت الأمة، وبقي مرض الشرك؛ واختلف الزمن، وبقي السؤال: (أَفَلَا تَتَّقُونَ).

وهنا تتجلى وحدة النبوات. فالأنبياء ليسوا أصحاب مشروعات متعارضة، بل أصواتٌ متعددة لحقيقة واحدة. كل رسول يأتي قومه في لغتهم وواقعهم، لكنه يفتح أمامهم الباب نفسه: عبودية الله وحده. إنهم كالمصابيح المتتابعة على طريق واحد؛ يذهب حامل المصباح، لكن النور الذي جاء به يظل من المصدر ذاته.

وكان الرسول (مِنْهُمْ)؛ يعرف وجوههم، ولهجتهم، وأحوالهم، وتاريخ بيوتهم. لم يكن غريباً تسهل الريبة فيه، بل عاش بينهم حتى عرفوا صدقه. غير أن القرب من الحق لا يضمن الإيمان به؛ فقد تحجب الألفة ما ينبغي أن تكشفه، وقد يستكثر الإنسان النعمة لأنها جاءت على يد شخص يعرفه.

ثم ينهض الملائكة مرة أخرى، وكان التاريخ يحفظ أصواتهم أكثر مما يحفظون هم عبره: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ).

تكشف الآية الجذور الداخلية لموقفهم قبل أن تنتقل كلماتهم: كفر بالله، وتكذيب لقاء الآخرة، وإتراف في الحياة الدنيا. فرفضهم لم يكن نتيجة نقص الدليل، بل نتيجة بنية نفسية تخشى أن يكون للوحي حق في توجيهها.

إن التكذيب بالآخرة يحرر الشهوة من رقابة المصير؛ فإذا أقنع الإنسان نفسه بأنه لن يقف للحساب، صار أسهل عليه أن يجعل اللذة معياراً، والقوة حقاً، والمصلحة أخلاقاً. ولهذا تقترن مقاومة الرسالات كثيراً

بإنكار اللقاء؛ لأن الإيمان بالآخرة لا يضيف خبراً إلى العقل فحسب، بل ينشئ محكمة داخل الضمير.

أما الإتراف فليس مجرد سعة في الرزق، بل حالة تستولي فيها النعمة على القلب حتى تفسده. المال في اليد لا يضر بالضرورة، لكن الخطر أن ينتقل إلى موضع السيادة في النفس؛ فيصير الإنسان عاجزاً عن قبول حقيقة تهدد عاداته وامتيازاته.

لقد رأى الملائكة في بشرية الرسول سبباً لرفضه : **(يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ).**

كأن حاجته إلى الطعام والشراب تلغي صلته بالسماء. يريدون الحقيقة في صورة لا تشبههم، فإذا جاءت في إنسان يأكل ويشرب رفضوها؛ مع أن أعظم وجوه المعجزة أن يبلغ بشرٌ هذا الصفاء، وأن يحمل قلبٌ إنساني وحي السماء، ثم يعيش به بين الناس.

إن الرسول لا يفقد جلال رسالته لأنه يجوع، بل تصبح حياته حجة أقرب؛ فهو يطيع الله داخل الجسد نفسه الذي يحتجون بضعفه، ويقاوم الفتنة بالنفس البشرية نفسها التي يتذرعون بشهواتها. وبشريته تقول لهم: إن الطريق الذي أدعوكم إليه قابلٌ لأن يُعاش.

ثم صعدوا خطاب التخويف : **(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ).**

قلبوا المقاييس حتى صارت الطاعة للحق خسارة، والتحرر من الأصنام هزيمة. والباطل يحتاج دائماً إلى تغيير أسماء الأشياء؛ لأنه لو ظهرت الحقائق بأسمائها لانفضّ الناس عنه. يسمّى الاستعباد استقراراً، والجبن حكمة، والفساد مصلحة، والطاعة لله تخلّفاً أو خسارة.

وكان المملأ يخشون طاعة الناس للرسول؛ لأن من أطاع الوحي خرج من سلطانهم. لم تكن المشكلة أن الناس سيطيعون بشراً، فهم أنفسهم يريدون من الناس أن يطيعوهم، وإنما المشكلة: أيُّ بشرٍ ستطاع كلمته؟ بشرٌ يردهم إلى الله، أم بشرٌ يربط مصالحهم به؟

ثم انتقلوا إلى السخرية من البعث: (أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ) ٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ).

إنهم لا يقدمون دليلاً، بل يكررون الاستبعاد: (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ). والتكرار هنا ضجيج العجز؛ كأن رفع الصوت يغني عن الحجة. رأوا التراب والعظام، ولم يروا القدرة التي أنشأت الإنسان أول مرة من سلالَةٍ من طين.

وهكذا ينشأ الإنكار حين ينظر الإنسان إلى المادة بعد فنائها، ولا ينظر إلى الله قبل إنشائها. العظام في ميزان قدرتنا لا تعود، أما في ميزان قدرة الخالق فليست الإعادة أغرب من الابتداء.

ثم أعلنوا فلسفتهم كاملة: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ).

إنها كلمة المادية القديمة: لا حقيقة وراء المشهد، ولا حياة بعد هذه الحياة، ولا محكمة بعد الموت. أجيال تموت وأخرى تحيا، والدورة تمضي بلا غاية.

لكن إذا كانت الدنيا هي كل شيء، فمن يعيد للمظلوم حقّه إذا مات ظالمه قوياً؟ وأين تذهب دموع الذين رحلوا دون إنصاف؟ وما معنى الضمير إذا انتهى المحسن والمجرم إلى العدم نفسه؟ إن إنكار الآخرة لا يلغي الحساب فقط، بل يجردّ الوجود من عدالته النهائية.

ثم اتهموا الرسول بالافتراء: (إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ).

يا للمفارقة! هم ينكرون البعث بلا برهان، ثم يتهمون بالافتراء من جاءهم بوحي الله. وحين يغلق الإنسان باب الإيمان في قرارة نفسه، تتحول كل حجة تأتيه إلى مادة للمكابرة. فقولهم: (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) ليس نتيجة بحث، بل قرار سابق على البحث.

عندها لم يبق للرسول إلا الملجأ الذي لجأ إليه نوح: (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون).

الكلمات نفسها؛ لأن وجع الأنبياء واحد، ومصدر نصرهم واحد. حين تُغلق الأرض أبوابها، يبقى باب السماء، وحين ينفضّ الناس عن صاحب الحق لا يصبح وحيداً ما دام قادراً أن يقول: (رَبِّ).

فجاءه الوعد: (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ).

ما أقصر هذه الـ (قَلِيلٍ) في ميزان الله، وإن طالَّت على المنتظر! فزمن الباطل مهما امتدَّ قليل؛ لأنه محدود، وكل محدودٍ إلى انقضاء. قد تمر على المؤمن الساعات ثقيلة، لكنه حين ينظر إليها من شاطئ النهاية سيرى أنها كانت أقل مما ظن.

والندم هو الحقيقة حين تأتي بعد فوات فرصة العمل. كان يمكنهم أن يؤمنوا حين كان الإيمان اختياراً، لكنهم سيعرفون الحق حين لا تعود المعرفة نجاة. وما أشد الفرق بين بصيرة تهدي صاحبها في زمن الإمكان، وحقيقة تقتحمه بعد أن يُغلق الباب.

ثم وقع الحكم: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

الصيحة التي كانوا يملؤون الدنيا بمثلها من السخرية جاءت فأسكتت أصواتهم كلها. ووصف الله هلاكهم بأنه (بِالْحَقِّ)؛ فلم يكن بطشاً مجرداً، بل عدلاً بعد إنذار، وجزاءً بعد إمهال.

ثم صار الذين ظنوا أنفسهم سادة الأرض (غُرَاءً)؛ كالرغوة والحطام الذي يحمله السيل، لا وزن له ولا ثبات. وهكذا يفعل القرآن بوهم القوة: يكشف أن المترف الذي يملأ المشهد اليوم قد يصير غداً شيئاً هامشياً تدفعه حركة التاريخ بعيداً.

ثم تتسارع الأجيال في السورة: (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ○ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ).

لكل أمةٍ عمر، كما لكل إنسان عمر. تولد الحضارات، وتقوى، وتبني، وتظن أن سلطانها أبدي، ثم يأتي أجلها فلا تتقدم ساعةً ولا تتأخر. إن السنن لا تجامل أمةً لأنها عظيمة في عين نفسها، ولا تؤجل السقوط لأن أصحابه لا يتخيلونه.

ثم قال الله: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ).

(تَتْرَى)؛ أي متتابعين، رسولاً بعد رسول، ورحمةً بعد رحمة، وحجةً بعد حجة. لم يترك الله البشرية في ضلالها، بل ظل يطرق أبوابها بالوحي. كلما انطفأ مصباحٌ في زمن، أرسل مصباحاً آخر، حتى لا يحتج الناس بأن الظلام كان كاملاً.

لكن العجيب أن الاستجابة المتكررة كانت: (كَذَّبُوهُ). اختلفت لغات الأقوام وأشكال عمرانهم، لكن الجملة بقيت. كأن الغفلة تراث قاموسها عبر العصور، وتعيد إنتاج اعتراضاتها في كل بيئة.

ثم كانت النهاية: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ). كانوا يوماً أحياء يتحدثون، ثم صار الآخرون يتحدثون عنهم. كانوا يملكون المناير، ثم لم يبق منهم إلا خبر؛ كانوا يسخرون من الرسل، ثم صار مصيرهم موعظةً لأتباع الرسل.

والآية لا تقول إنهم صاروا تاريخًا فحسب، بل (أَحَادِيثٌ)؛ وكأن وجودهم المادي كلّه انكمش حتى صار كلماتٍ تُروى. وهذه نهايةٌ تهز القلب: كم من إنسانٍ يبدد عمره ليكون حديث الناس في حياته، ثم لا يسأل: أيّ حديثٍ سأكون بعد موتي؟ حديث رحمةٍ وأثر، أم حديث ظلمٍ وعبرة؟

هكذا تمضي قافلة الأنبياء في السورة: أصواتٌ متتابعةٌ تنادي بكلمة واحدة، وأقوامٌ يكررون الرفض نفسه، ونهاياتٌ تكشف أن الحق لا يُهزم بذهاب أصحابه، وأن الباطل لا ينتصر بطول بقائه.

فالمعركة ليست بين رسولٍ وقومه وحدهم، بل بين ذاكرة الوحي ونسيان الإنسان؛ بين كلمةٍ تأتي من السماء لتعيد ترتيب الحياة، وشهوةٍ تريد أن يبقى كل شيء كما هو.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ
الفصل السادس

مُوسَى وَهَارُونُ... حين يواجه الوحي استكبار السلطة

بعد أن عرضت السورة مواكب الرسل متتابعةً، توقفت عند مشهدٍ تتجسد فيه المواجهة بين نور الوحي وغرور السلطان: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ).

جاء موسى وهارون (بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)؛ ببراهين لا تستمد قوتها من الجيوش، ولا تحتاج إلى خزائن الأرض كي تفرض حقيقتها. كان فرعون يملك سلطان القهر، بينما كان موسى يحمل سلطان الحجة؛ والأول يسيطر على الأجساد، أما الثاني فيوظف الأرواح.

وفي إرسالهما معاً رحمةً ولطف. لم يُكَلِّف موسى أن يواجه الطغيان وحده، بل شَدَّ عضده بأخيه. فالرسالة، وإن كان مصدرها السماء، يحملها بشرٌ يحتاج بعضهم إلى بعض. والموازرة ليست نقصاً في الإيمان، بل من أسباب ثباته؛ فكم من صاحب حقٍّ لم يحتج إلى من يصنع له اليقين، لكنه احتاج إلى قلبٍ يقف بجواره حين يشتد الطريق.

وكانت الوجهة: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ). إلى مركز القوة الذي يظن أن أحداً لا يستطيع مسااءته. فالرسالة لا تكتفي بمواساة المستضعفين، بل تذهب إلى الذين يصنعون استضعافهم، وتقول للطاغية في وجهه: لست رباً، ولست فوق الحق، والناس الذين استعبدتهم عبادٌ لله لا عبيدٌ لك.

لكن الآية لَحِصَتْ موقف فرعون وملئه في كلمة: (فَاسْتَكْبَرُوا).

لم تقل: فلم يفهموا؛ لأن المشكلة لم تكن في غموض الدليل، بل في تضخم الذات. والاستكبار هو أن تعرف النفس قدر الحقيقة، ثم ترفض الخضوع لها حفاظاً على صورة زائفة عن نفسها. فالكبر ليس جهلاً بالحق دائماً؛ قد يكون عجزاً أخلاقياً عن الانحناء له.

ثم كشفت طبيعتهم الاجتماعية: (وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ).

كان علوهم عادةً مستقرة، لا موقفاً عابراً؛ علواً في الأرض، واستطالوا على الناس، وقسموا المجتمع إلى سادة وأتباع. والعلو حين يستقر في النفس يجعل صاحبه يرى المساواة إهانةً، والعدل خسارة، وتحرير المستضعفين تهديداً للنظام.

إن المستكبر لا يكره الحق لأنه لا يفهمه، بل لأنه يعيد الناس إلى ميزان لا يكون هو مركزه. والتوحيد أخطر فكرة على الطغيان؛ لأنه يعلن أن الكبرياء لله وحده، وأن أقوى حاكم عبد، وأن حقه في الطاعة محدود ببطاعة الله والعدل بين خلقه.

ثم قال فرعون وملؤه: (فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ).

هنا انكشف الجرح الحقيقي: ليس لديهما اعتراض على الدليل، وإنما على المكانة الاجتماعية لحامل الدليل. كيف يؤمنون لبشرين من قوم استعبدوهم؟ كيف يأخذ السيد، في وهمه، الحقيقة ممن يعدّه عبداً؟

إنهم لم يقولوا: وقومهما على خطأ، بل قالوا: (لَنَا عَابِدُونَ). صارت عبودية الناس لهم دليلاً على بطلان رسالة التحرر! أرادوا أن يجعلوا

التفوق السياسي والاجتماعي برهانًا فكريًا، كأن من ملك الأجساد ملك الحقيقة، ومن أخضع الناس صار قوله أصح.

وهذه آفةٌ تتكرر بأشكال مختلفة؛ فقد يرفض الإنسان كلمةً لا لخللٍ فيها، بل لأنه يستصغر قائلها، أو لأنه جاء من بيئةٍ لا يمنحها الاعتبار، أو لأنه لا يملك لقبًا يفرض الإصغاء إليه. وهكذا يحرم الكبير صاحبه من الحكمة حين تأتیه في ثوبٍ لا يوافق غروره.

قالوا: (أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)، مع أنهم كانوا يطالبون البشر أن يخضعوا لهم! رفضوا اتباع موسى وهارون بحجة المساواة، ثم استعبدوا بني إسرائيل بحجة التفوق. إن الباطل لا يبحث عن الاتساق؛ إنه يستخدم كل حجةٍ تحقق له غرض اللحظة، ولو ناقضت حجته السابقة.

ثم جاءت الخلاصة: (فَكَذَّبُوهُمَْا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ).

ما أقصر المسافة في التعبير بين التكذيب والهلاك! كانت بينهما في الواقع أحداثٌ ومواقف وإنذارات، لكن القرآن يطويها ليكشف الرابطة الحقيقية بين السبب والمصير. فحين يصرّ الطغيان على رفض الحق، يحمل في داخله بذرة سقوطه، وإن بدا في ظاهر اللحظة ثابت الأركان.

لم يقل: فغلبهما فرعون بما يملك؛ بل قال عن فرعون وملئه: (فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ). أين ذهب العلو؟ وأين الجند؟ وأين الذين كانوا يعبدونهم من دون الله؟ انتهى السلطان الذي بدا مطلقًا، وبقيت كلمة موسى تتلى، وصار فرعون نفسه رمزًا لكل طاغية يتوهم أن الأرض ملكه.

ثم تنتقل السورة من مشهد المواجهة إلى الكتاب الذي بقي بعد نجاة موسى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

فالمعجزة تهزّ اللحظة، لكن الكتاب يبني الأمة. نجاة بني إسرائيل من فرعون لم تكن الغاية الأخيرة؛ إذ قد يخرج الجسد من الاستعباد وتظلّ النفس تحمل منطقة. كان لا بد من كتاب يعيد بناء الوعي، ويهدي الإنسان بعد أن تحرر من سوط الطاغية إلى التحرر من أهوائه.

إن إسقاط القيد الخارجي أسهل أحياناً من إسقاط القيد الداخلي. قد يكره المظلوم طاغيته، ثم يعيد إنتاج سلوكه حين يملك شيئاً من القوة؛ لأن صورة الطغيان بقيت كامنة في وعيه. لذلك قال: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)؛ فالحرية لا تكتمل بالخروج من أرض الاستضعاف، بل بالدخول في هداية الله.

ثم تنتقل السورة انتقالاً لطيفاً من أخوين رسولين إلى أمّ وابنها: (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ).

لم تقل: آيتين، بل (آيَةً)؛ لأن قصة عيسى وأمه حقيقة واحدة متصلة. أمّ عفيفة اصطفاها الله، وابنٌ وُلد بغير أب، فكان وجودهما معاً شاهداً على قدرة الله التي لا تقف عند المألوف.

إن الذي خلق آدم من غير أبٍ ولا أم، وخلق الناس من أبٍ وأم، قادرٌ أن يخلق عيسى من أمٍ بلا أب. اختلاف الطريق لا يعني اختلاف الخالق؛ فالسبب نفسه لا يخلق، وإنما الله يخلق عند السبب وبغيره، ليظل القلب متعلقاً بالمسبب لا بالأسباب.

وسمّاه (ابْنَ مَرْيَمَ)، وفي النسبة تكريمٌ لأمه، وتثبيتٌ لحقيقة بشريته، ونفياً لما أُلصق به الغالون من أوهام الألوهية. هو آيةٌ من آيات الله، والآية تدل على خالقها ولا تصير هي الخالق.

ثم قال: (وَأَوَيْنَاهُمَا). وما أرقّ هذا الفعل بعد ما عانته مريم من وحدة الاتهام وثقل الابتلاء! الإيواء ليس مجرد توفير مكان، بل منح أمانٍ بعد خوف، وطمأنينة بعد اضطراب، وحضنٍ من العناية لمن ضاقت به نظرات الناس.

كانت الربوة (ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)؛ موضع استقرار، وماءٍ ظاهر جارٍ. كأن الله جمع لهما حاجتي الروح والجسد: القرار الذي يسكن الخوف، والمعين الذي يطفئ الظمأ. وحين يأوي الله عبداً، لا يعني ذلك دائماً أن يخرج من كل ابتلاء، بل أن يجعل له داخل الابتلاء موضعاً لا تصل إليه الوحشة.

وهكذا يمر شريط النبّوات في السورة: نوحٌ في السفينة، ورسولٌ يواجه قومه، وموسى وهارون أمام فرعون، ومريم وابنها في ربوةٍ آمنة. تختلف الصور، لكن العناية واحدة. قد تأتي النجاة على خشبٍ فوق الماء، أو بشق البحر، أو في ربوةٍ ذات قرار؛ فلا تتكرر وسائل الله، لأن خزائن لطفه أوسع من توقعات الإنسان.

وفي المقابل يتكرر مرض البشر: يرفضون الرسول لأنه بشر، أو لأنه من المستضعفين، أو لأنه يصادم ميراثهم، أو لأنه يهدد امتيازاتهم. تتغير العبارات، لكن حقيقتها واحدة: النفس لا تريد أن تخضع للحق إذا جاءها بما يزعج سلطانها.

والسورة، وهي تسرد هذه المواقب، لا تريدنا أن نقف متفرجين على فرعون والملاء؛ بل أن نفتش عن أجزاءٍ من منطقهم في نفوسنا. فكم مرةٍ رددنا كلمةً صحيحةً لأن قائلها أصغر منا؟ وكم مرةٍ رفضنا مراجعة أنفسنا حفاظاً على مكانتنا؟ وكم مرةٍ اتخذنا قبول الناس لنا دليلاً على أننا على الحق؟

ليس فرعون مجرد شخصٍ غرق في التاريخ، بل قابليةٌ كامنة في النفس حين تنسى عبوديتها، وتستكبر عن الاعتراف، وتطلب من الآخرين أن يدوروا في فلكها. وموسى ليس قصةً بعيدة، بل صوت الوحي كلما وقف أمام غرور القوة وقال: إن فوق سلطان الأرض سلطاناً لا يزول.

لقد هلك فرعون، وبقي الكتاب؛ سقط العلو، وبقيت الهداية. وهذه هي النتيجة التي يعيد التاريخ إثباتها: إن القوة التي لا تستند إلى الحق تأكل عمرها ثم تسقط، أما الكلمة التي تأتي من الله فقد يحملها مستضعفان أمام إمبراطورية، ثم تكون هي الباقية حين تصير الإمبراطورية أثراً بعد عين.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ... مائدة واحدة ورسالة واحدة وطريق واحد

بعد أن مرّت السورة على مشاهد متباعدة من تاريخ النبوة، جمعت الرسل كلهم في نداءٍ واحد، كأن حواجز الزمان قد انطوت، وكأن نوحًا وموسى وهارون وعيسى وسائر الأنبياء يقفون في صفٍّ واحد يتلقون التكليف ذاته: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ).

إنه نداءٌ يحمل تكريمًا عظيمًا للرسل، لكنه يذكر كذلك ببشريتهم؛ فهم يأكلون، ويعيشون في أجساد، ويحتاجون إلى ما يحتاج إليه الناس. لم يكن الصفاء النبوي خروجًا من الطبيعة البشرية، بل ارتقاءً بها في طاعة الله. يأكلون من طيبات الأرض، ثم يحولون الطاقة التي منحها لهم النعمة إلى عملٍ صالح.

وقدّم الأكل من الطيبات على العمل الصالح، كأن طهارة المدخل من مقدمات طهارة المخرج. فما يدخل الجسد ليس منفصلاً عما يصدر عنه؛ والمال الذي يُشترى به الطعام، وطريقة اكتسابه، وحلّه أو حرّمته، كلها تمتدّ آثارها إلى القلب والسلوك.

والطبيب أوسع من أن يكون حلالاً في صورته فقط؛ إنه ما سلّم طريقه من الظلم، وطابت به النفس دون خيانةٍ أو استغلال. قد يبدو الشيء طيباً في مذاقه، لكنه وصل إلى اليد عبر أذى إنسان أو أكل حق، فيفقد طيب معناه وإن بقي حسن مظهره.

ثم قال : (وَاعْمَلُوا صَالِحًا). فالطيبات ليست غايةً يُستغرق فيها، بل زادٌ على الطريق. يأكل الرسول ليعمل، ويستمد من نعمة الله قوةً على أداء رسالة الله. وهذه هي العلاقة الصحيحة بالدنيا: أن تكون وقودًا للعبادة، لا أن تتحول العبادة إلى وسيلةٍ للحصول عليها.

وكم يختل ميزان الإنسان حين يأكل ليأكل، ويكسب ليستهلك، ويعيش ليطيل أسباب العيش دون أن يسأل: لأي شيء أُعطيت هذه القوة؟ إن الجسد الذي يتغذى ولا يحمل خيرًا يشبه مصباحًا يُملأ بالزيت ثم لا يضيء.

وجاء ختام الآية : (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ).

العلم الإلهي هنا ليس تهديدًا مجردًا، بل حمايةً للإخلاص؛ فالرسل لا يحتاجون إلى شهادة الجماهير على صدقهم ما دام الله يعلم عملهم. قد يردّ الناس دعوتهم، ويفترون على مقاصدهم، لكن الحقيقة محفوظة في علم من لا تختلط عليه النيات.

وهذا يعيد العامل لله إلى مركزه كلما بعثه حكم الناس. فمن عمل منتظرًا إنصاف الخلق عاش مضطربًا؛ لأنهم قد يمدحون ما لا يستحق، ويذمّون ما هو نبيل. أما من استقر في قلبه: (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، فقد وجد الشاهد الذي تكفي شهادته.

ثم جاء الإعلان الجامع : (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون).

الأمة هنا أمة العقيدة والرسالة؛ موكب الأنبياء وأتباعهم، على امتداد التاريخ، ينتمون إلى أصل واحد: عبادة الله وحده. اختلفت بعض الشرائع بحسب الأزمنة والأقوام، لكن القلب الذي تنبض به الرسائل واحد، والقبلة الداخلية واحدة، والرب واحد.

إن وحدة الأمة ليست اتفاقاً سياسياً مؤقتاً، ولا تحالف مصالح، بل ثمرة لوحدة الرب. قال: (وَأَنَا رَبُّكُمْ) بعد قوله: (أُمَّةً وَاحِدَةً)، فكان الوحدة البشرية الحقيقية لا تُبنى إلا حول حقيقة تتجاوز أهواء البشر. فإذا تعددت الأرباب التي تتحكم في الضمائر، تمزقت الجماعة وإن رفعت شعار الوحدة.

والتوحيد ليس فقط عقيدة تنفي الشرك في العبادة، بل قوة تجمع الناس على ميزان أعلى من العرق والنسب والطبقة. ما دام الله رب الجميع، فلا يملك أحد أن يدّعي لنفسه جوهراً إنسانياً أرفع من غيره. التفاضل يصبح بالتقوى، لا بما لم يختره الإنسان من نسب ولون وموطن.

ثم قال: (فَاتَّقُوا). لم يقل: فاتفقوا؛ لأن الاتفاق الظاهري لا يدوم إذا غابت التقوى. قد تجتمع الأجساد وتتنافر القلوب، وقد تتوحد الشعارات وتتصارع المطامع. أما التقوى فتدّ كل نفس إلى مراقبة الله، ومن راقب الله كفّ ظلمه عن إخوانه، وأدّى حقهم، ولم يجعل اختلافه معهم باباً للبغي عليهم.

لكن البشر لم يحفظوا هذه الوحدة: (فَنَقْطَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).

ما أشد تصوير الفعل: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ). لم يقل: فاختلّفوا فحسب، بل جعلوا الأمر الواحد قطعاً متناثرة. أخذ كل فريقٍ جزءاً، ثم استغنى به عن الكل، وبني حوله جداراً، ونسي الأصل الجامع.

و (زُبْرًا)؛ أي قطعاً وكتباً متفرقة، كأن كل جماعة صنعت لنفسها ملقاً مغلقاً من الاعتقادات والأهواء، ثم رفضت أن ترى ما وراءه. لم يعد الدين طريقاً إلى الله، بل صار عند بعضهم علامةً حزبيةً يُثبتون بها تفوقهم على الآخرين.

والخطر الأكبر ليس مجرد التفرق، بل قوله: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ). إنهم لا يشعرون بألم التمزق، بل يفرح كل فريقٍ بقطعه. والفرح هنا فرح الإعجاب والانغلاق؛ حين يتوقف الإنسان عن فحص ما لديه، لأن انتماءه إليه صار عنده دليل صحته.

كم من جماعةٍ لا تسأل: أين الحق؟ بل تسأل: كيف نثبت أن الحق معنا؟ وكم من إنسانٍ يزن الأفكار بأسماء قائلها؛ فما جاء من حزبه قبله، وما جاء من غيره رده، ولو كان الأول خطأً والثاني صواباً. هكذا تتحول الجماعة من وسيلةٍ لخدمة الحق إلى حجابٍ عنه.

إن الانتماء قد يكون نعمةً إذا أعان على الخير، لكنه يصير صنماً إذا طلب من الضمير أن يكذب ما يرى، أو يدافع عن الظلم لأن فاعله قريب، أو يهجر العدل لأن المستفيد منه خصم. والمؤمن ينتمي إلى الحق أولاً؛ يحب جماعته، لكنه لا يعبدها، وينصرها على الخير، ولا ينصر باطلها على الحقيقة.

ثم قال الله لنبيه: (فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ).

الغمرة هي ما يغمر الإنسان ويغطيه، فلا يرى ما حوله. ليسوا في جهلٍ عابر، بل في حالةٍ من الانغماس؛ أحاطت بهم الأهواء حتى صار الحق موجودًا أمامهم، لكنهم لا يبصرونه.

وفي قوله: (حَتَّىٰ حِينٍ) تهديدٌ هادئ. فالإمهال ليس إقرارًا، والصمت عنهم ليس عجزًا. إن لكل غمرةٍ وقتًا تنكشف فيه، ولكل نشوة باطلٍ ساعةٌ تنتهي، لكن المشكلة أن الانكشاف قد يأتي بعد انقضاء زمن الاختيار.

ثم تسأل السورة سؤالًا يفصح خداع النعمة: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ).

هذه من أخطر أوهام الإنسان: أن يظن العطاء الدنيوي شهادة رضاٍ إلهي. يرى المال يتكاثر، والأبناء يحيطون به، والأبواب تُفتح له، فيستنتج أن طريقه صحيح؛ كأن الرزق وسامٌ أخلاقي، وكأن الثراء براءةٍ من الحساب.

لكن النعمة قد تكون تكريمًا، وقد تكون اختبارًا، وقد تكون استدراجًا لمن أصرَّ على الغفلة. ليست القضية: ماذا أعطاك الله؟ بل: ماذا فعل بك العطاء؟ هل قربك أم أبعدك؟ هل جعلك أشكر وأرحم، أم أشد قسوةً واستغناءً؟

المال لا يحمل تفسيره في ذاته؛ قد يكون في يد عبدٍ صالح بابًا إلى الجنة، وفي يد مستكبر سلماً إلى الهلاك. وكذلك الأبناء: قد يكونون قرة عينٍ وامتداد خير، وقد يتحولون إلى مصدر غرورٍ وتكاثر. إن قيمة النعمة تُعرف بما تنشئه في الروح، لا بحجمها في اليد.

قال: (نَسَارَغْ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ)؛ فكأنهم توهّموا أن سرعة الرزق تعني سرعة الرضا. ثم جاء التصحيح: (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ). والمصيبة ليست فقط أنهم لا يعلمون، بل أنهم فقدوا الإحساس بالخطر. يعيشون داخل الامتحان وهم يظنون أنهم يتسلمون الجوائز.

بعد هذه الصورة، تعرض السورة الوجه المقابل؛ أولئك الذين لم تخدمهم النعمة، ولم تجعلهم الطاعة آمنين من مكر النفس: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) ○ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ).

إنهم يخشون ربهم، لكن خشيتهم ليست خوف اليأس من رحمة الله، بل إشفاق العارف بجلاله. وكلما عرف العبد ربّه ازداد تواضعًا؛ لأن المعرفة الحقيقية لا تنفخه، بل تكشف له المسافة بين تقصيره وحق الله عليه.

وهم يؤمنون بآياته؛ لا يمرون بها مرور الغافل، بل يستقبلون الكون والوحي بقلبٍ مفتوح. ثم يحرسون توحيدهم: (بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ). لا يشركون به في العبادة، ولا في غاية العمل، ولا يجعلون رضا الخلق شريكًا لرضاه في ضمائرهم.

ثم تبلغ الصورة ذروة صفائها: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ).

إنهم يعملون، ويعطون، ويطيعون، لكن قلوبهم لا تتكى على العمل كأنها ضمنت القبول. يؤتون ما آتوا، ثم يخافون أن يكون قد شابه نقصاً أو رياء، أو لم يبلغ من الإخلاص ما يليق بالله.

هذه منزلة بعيدة عن حالين منحرفين: حال من يترك العمل متذرعاً بخوف التقصير، وحال من يعمل قليلاً ثم يعجب بنفسه كأنه أدى حق الله كاملاً. أما المؤمن فيجمع بين الاجتهاد والخوف، وبين البذل والافتقار، وبين حسن العمل وسوء الظن بالنفس.

ووجل القلب بعد الطاعة علامة حياة؛ لأن القلب الميت لا يقلقه القبول، بل تكفيه صورة العمل أمام الناس. أما المؤمن فيعلم أن القضية ليست أن يفعل، بل أن يُقبل منه؛ وأن العمل قد يرتفع بجناح الإخلاص، وقد يسقط بتقل العجب.

وسبب وجلهم أنهم (إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ). إن الرجوع إلى الله حاضر في وعيهم، ولذلك لا ينظرون إلى أفعالهم داخل اللحظة فقط، بل يتخيلونها وهي تُعرض يوم القيامة. كم ستسقط من قيمة الأشياء لو نظرنا إليها من موقع العرض على الله! وكم من خصومة سنتركها، وكلمة سنبتلعها، وأمانة سنؤديها، إذا تذكرنا أننا راجعون!

ثم جاءت الشهادة لهم: (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).

كان أهل الغفلة يظنون أن الله يسارع لهم في الخيرات، أما هؤلاء فهم الذين (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ). هناك فرقٌ بين من ينتظر أن تأتيه الخيرات لتزيد متاعه، ومن يذهب هو إليها ليزيد أثره.

المسارعة ليست تسرعاً بلا بصيرة، بل يقظةٌ تعرف أن الفرص تمضي، وأن العمر أقصر من التسويف. إذا ظهر باب خيرٍ لم يقل المؤمن: سأفعل غداً؛ لأنه لا يملك غداً، ولأن القلب الذي يؤجل الطاعة اليوم قد لا يجد رغبته غداً.

وهم (لَهَا سَابِقُونَ)؛ لا يسبقون الناس طلباً للعلو عليهم، بل يسبقون أنفسهم قبل أن تثقلها العادة، ويسبقون الأجل قبل أن يغلق باب العمل، ويسبقون الفتنة قبل أن تحول بينهم وبين الخير.

وهكذا تضع السورة أمامنا جماعتين: جماعةٌ فرحت بما لديها، فحبست نفسها داخل حدودها؛ وجماعةٌ وجلت قلوبها، فانطلقت تسابق إلى الخير. الأولى آمنةٌ من نفسها وهي في الخطر، والثانية خائفةٌ من تقصيرها وهي في طريق النجاة.

إن المؤمن الحقيقي لا تقول له طاعته: لقد وصلت، بل تقول: أسرع؛ ولا يقول له عطاؤه: أنت غني بعملك، بل يقول: أنت فقير إلى القبول. وبين الخشية والمسارعة تتكوّن النفس التي لا يشلّها الخوف، ولا يفسدها الإنجاز.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... ميزانُ العدل وكتابُ الحقيقة

بعد أن وصفت السورة المؤمنين الذين يسارعون في الخيرات وقلوبهم وجلة، جاءت بآية تطمئن القلب من جهة، وتقطع أعداره من جهة أخرى: (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).

إن الله لا يطالب الإنسان بما يتجاوز طاقته، ولا يحاسبه على مقام لم يفتح له سبيله، ولا يضع على كتفيه حملاً يستحيل عليه أدائه. كل تكليف إلهي يحمل في داخله شهادة خفية بقدرة الإنسان عليه؛ فإذا أمرك الله، فقد أخبرك ضمناً أن فيك من الاستطاعة ما يكفي للبدء، وفي معونته ما يكفي لإتمام الطريق.

لكن الوسع ليس دائماً ما اعتادت النفس أن تفعله بسهولة؛ فقد تظن الكسل عجزاً، والخوف استحالة، والتعلق ضرورة. والله يعلم حدود القدرة الحقيقية وراء الأعدار التي نصنعها لحماية راحتنا. لذلك تمنح الآية سكيناً للصادق، لكنها لا تمنح المتناقل حجة يختبئ خلفها.

وقد تختلف التكاليف الظاهرة، لكن العدل الإلهي لا يختل؛ فهذا يُبتلى بالفقر، وذاك بالغنَى، وهذا بالضعف، وذاك بالقوة. ليس الحساب على تماثل الأحوال، بل على الأمانة داخل كل حال. قد يسبق قليلُ العمل كثيره؛ لأن الأول بذل آخر ما في وسعه، بينما أعطى الآخر من فائض قدرته.

ثم تقول الآية: (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ).

إنه كتاب الأعمال الذي لا ينسى ما نسيه أصحابه، ولا تغريه منزلة، ولا تخيفه سلطة. ووصفه بأنه (يَنْطِقُ) يجعل الماضي كأنه يستعيد صوته يوم القيامة؛ الكلمات التي ذهبت في الهواء تعود، والخطوات التي محتها الأرض تظهر، والنيات التي عجز الناس عن رؤيتها تنكشف في علم الله.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يروي قصته كما يريد، وأن يحذف منها ما يخرجه، وأن يجمّل دوافعه، وأن يجعل نفسه بطلاً في كل موقف. أما هناك، فالكتاب لا يكتب السيرة التي نحب أن نروى عنا، بل الحقيقة التي عشناها.

ثم جاءت الطمأنينة الكبرى: (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). لن يُزاد في سيئة، ولن يُنقص من حسنة، ولن يتحمل إنسانٌ ذنب غيره. والعدل يوم القيامة ليس مجرد حكمٍ يصدر في النهاية، بل انكشافٌ كامل يجعل كل نفس ترى أن ما انتهت إليه هو الحق.

لكن المشكلة ليست في غياب الحقيقة، بل في القلب الذي لا يريد رؤيتها: (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ).

الغمرة تغطي القلب كما يغمر الماء الشيء، فلا تعود المشكلة نقص المعلومات، بل غياب القدرة على الانتفاع بها. قد يسمع الإنسان الآية واضحة، لكنه يستقبلها بقلبٍ مغمور بالشهوة أو العصبية أو الكبر، فتتمر الحقيقة بسمعه ولا تصل إلى موضع القرار.

ولهم، إلى جانب غفلتهم، أعمالٌ يمضون إليها؛ كأن للباطل طريقًا يدفع أصحابه خطوةً بعد خطوة. فالانحراف نادرًا ما يقف عند حدّه الأول؛ الكلمة تفتح بابًا، والباب يقود إلى عادة، والعادة تنشئ قلبًا جديدًا، حتى يصبح ما كان يستقله الإنسان في البداية سلوكًا يمارسه بلا اضطراب.

ثم تحدد السورة لحظة الاستيقاظ القاسي: **(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ).**

خصّت المترفين؛ لأنهم كانوا أكثر اغترارًا بالأمان. أحاطت بهم النعمة حتى ظنوا أنها حصنٌ من المصير، فلما وقع العذاب ارتفع صراخهم. **** (يَجْأَرُونَ) **** تصور صوتًا يخرج من أعماق الخوف، بعد أن كانت أصواتهم ترتفع بالسخرية والاستعلاء.

ما أضعف الإنسان حين تسقط عنه زينة الظروف! قد يبدو شديدًا ما دامت القوة تحيط به، فإذا مسّ العذاب موضع ضعفه عاد إلى حقيقته الأولى: عبدًا لا يملك لنفسه دفعًا.

لكن الجوار بعد انتهاء زمن الاختيار لا يصنع نجاة: **(لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ).**

هناك دعاءٌ يفتح أبواب الرحمة لأنه خرج في زمن التوبة، وهناك صراخٌ لا يغيّر المصير لأنه جاء بعد إغلاق الباب. ليست قيمة النداء في شدته، بل في وقته وصدقه. كم من إنسانٍ يستطيع اليوم أن يقول: رب اغفر لي، فتفتح له السماء، لكنه يؤجلها حتى تأتي لحظةٌ يتمنى فيها كلمةً لا تنفعه.

ثم يكشف الله سبب هذا الخذلان: (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ).

لم تكن الآيات غائبة؛ كانت تُتلى عليهم. الحجة كانت قريبةً من أسماعهم، لكنهم كانوا ينكصون على أعقابهم. والتعبير يرسم إنساناً يُدعى إلى الأمام فيعود إلى الخلف؛ كأن الوحي فتح له طريق الارتقاء، فاختر الرجوع إلى أسر الهوى.

إن سماع القرآن وحده لا يضمن الهداية؛ فقد يكون الصوت حاضراً والقلب مدبراً. ليست العبرة بأن تمر الآيات على اللسان، بل أن تمرّ أحكامها على الإرادة فتغيّر اتجاهها.

ثم تقول السورة: (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ).

كانوا يستكبرون بالحرم أو بالبيت الذي يرون أنفسهم أهله، بدل أن يقودهم شرف الجوار إلى شرف العبودية. جعلوا النعمة وسيلة استعلاء، وحولوا القرب المكاني من المقدّس إلى حجابٍ عن معناه.

وفي الليل يجتمعون للسمر، لكن مجالسهم لم تكن بحثاً عن الحقيقة، بل هجرًا في القول وطعنًا في الوحي والرسول. كان بإمكان الليل أن يكون زمن خلوة وإنابة، فجعلوه زمنًا لترويج السخرية. المكان نفسه قد يكون بابًا إلى الله عند قلب، وحجابًا عنه عند قلبٍ آخر؛ والليل نفسه قد يحمل دمة ساجد، أو ضحكة مستهزئ.

ثم تحاصرهم السورة بالأسئلة: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ).

لم تطلب منهم مجرد السماع، بل التدبر. فالتدبر أن يمضي الإنسان خلف ظاهر الألفاظ إلى ما تفتحه من الحقائق، وأن يسمح للكلام بأن يسأله بدل أن يكتفي هو بالحكم عليه. وكثير من الناس لا يرفضون الوحي بعد تدبره، بل يرفضون أن يتدبروه؛ لأنهم يشعرون أن الفهم الصادق قد يطالبهم بتغيير لا يريدونه.

وتسأل: هل جاءهم شيء لم تعرفه البشرية من قبل؟ إن أصل رسالة التوحيد هو النداء القديم الذي جاء به الرسل جميعًا. لم يكن القرآن انقطاعًا عن موكب النبوة، بل خاتمةً مصدقةً لأصله.

ثم تقول: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ).

لقد عرفوا رسولهم قبل الرسالة؛ عرفوا صدقه وأمانته، ولم يجربوا عليه كذبًا على بشر. فكيف يتهمونه بالكذب على الله؟ إن سيرته السابقة كانت جزءًا من الحجة، لكن الهوى يستطيع أن ينكر اليوم ما شهد به بالأمس إذا صارت الحقيقة تهدد مصالحه.

ثم يأتي السؤال الذي يعيد صدق اتهام الرسل السابقين: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حِجَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ).

ليس به جنون؛ بل جاءهم بالحق. وهنا تكشف الآية العلة دون ستار: **(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)**. قد يعرف الإنسان أن الأمر حق، لكنه يكرهه لأنه ثقیل على عادته، أو لأنه يسلبه امتيازاً، أو لأنه يلزمه بالاعتذار والرجوع.

والحق لا يعد الإنسان بأن يوافق هواه؛ بل يأتي أحياناً ليكسره، وينقذه من عبوديته لنفسه. لذلك فإن محبة الحق منزلة أعلى من معرفته؛ أن تحبه حين ينصف خصمك، وحين يدين جماعتك، وحين يطلب منك التراجع، وحين يكشف نقصك.

ثم تضع السورة قاعدةً كونية كبرى: **(وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)**.

الحق لا يفصل على مقاس الرغبات؛ لأن الأهواء كثيرة متعارضة، تتبدل من إنسانٍ إلى آخر ومن لحظةٍ إلى أخرى. لو صار كل هوى قانوناً، لانفرط عقد الوجود. استقامة الكون قائمة على نظامٍ ثابت، واستقامة الحياة الأخلاقية لا تكون إلا بميزانٍ يتجاوز تقلب النفس.

إن الإنسان المعاصر كثيراً ما يريد حقيقةً مرنة إلى الحد الذي لا تعارضه في شيء؛ يريد إلهاً يبارك جميع رغباته، وديناً يمنحه السكينة دون أن يطالبه بالتغيير. لكن الحق الذي يتبع الهوى لا يعود حقاً، بل يصبح مرآةً للنفس.

ثم قال: **(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)**.

جاءهم القرآن بما فيه شرفهم وتذكيرهم وحقيقة أمرهم، لكنهم أعرضوا عما يرفعهم. وهذه من مآسي الإنسان: أن يهرب من الدواء لأنه مُرّ، ويتمسك بالمرض لأنه مألوف؛ وأن يرفض النور لأنه يكشف فوضى غرفته.

ثم تنفي السورة شبهة المصلحة عن الرسول: (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

لا يطلب منهم مالا، ولا يجعل الهداية تجارة يدفعون ثمنها له. إنه متحرر من أموالهم، ولذلك يستطيع أن يقول لهم الحق كاملاً. ومن أعظم ما يحفظ كلمة الداعية ألا تكون مصلحته رهينة لمن يخاطبهم؛ فمن استغنى بالله قدر أن ينصح، ومن علّق رزقه برضا الناس خاف أن يهزّ أصنامهم.

ثم تأتي الشهادة للرسالة: (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

الصراط مستقيم لا التواء فيه، لكنهم يفرّون منه لا لأنه غامض، بل لأن الاستقامة تكلف النفس أن تتخلى عن طرق ألفتها. الطريق المستقيم قد يكون واضحاً، غير أن وضوحه لا يجعل السير فيه تلقائياً؛ فلا بد من إرادة تقاوم جذب المنحنيات.

ثم تربط السورة انحرافهم عن الصراط بأصل أعمق: (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ).

الآخرة تضبط اتجاه الحياة؛ فمن نزعها من وعيه لم يعد يملك نقطة النهاية التي يقيس بها صحة الطريق. وقد يحقق نجاحاتٍ كثيرة، لكنه يكتشف متأخرًا أنه كان يتقدم في الاتجاه الخطأ.

فالنكوب عن الصراط ليس دائمًا توفيقًا؛ قد يكون حركةً سريعةً بعيدة عن الغاية. ولهذا ليس كل تقدمٍ فلاحًا، ولا كل وصولٍ نجاة؛ فقد يصل الإنسان إلى ما أراد، ثم يعلم أن ما أراده لم يكن يستحق عمره.

ثم تكشف السورة عمق المرض: **(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤَ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).**

ليس كل من طلب كشف الضر مستعدًا للهداية بعد كشفه. قد يدعو الإنسان في الشدة، فإذا جاءت العافية عاد إلى طغيانه، كأن الألم لم يمر به. المشكلة لم تكن في الظرف وحده، بل في قلبٍ تعلّم كيف يطلب النجاة ولم يتعلم كيف يشكرها.

و**** (الْجُؤَ) **** تدل على الاستمرار والعناد؛ لا يمرون بالطغيان، بل يقيمون فيه. و**** (يَعْمَهُونَ) ****؛ يترددون متحيرين بلا بصيرة، مع أنهم يظنون أنفسهم أحرارًا. فالهوى يعد الإنسان بالانطلاق، ثم يتركه يدور داخل المتاهة نفسها.

وتقول السورة: **(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرُّونَ).**

حتى الألم لم يفتح قلوبهم. فالابتلاء لا يهدي بذاته؛ إنه يكشف ما في النفس. قد يلين به قلب، وقد يزداد آخر قسوة. ليست كل دمة توبة، ولا كل شكوى رجوعاً؛ فقد يتألم الإنسان من فقد النعمة دون أن يشفق إلى المنعم.

الاستكانة لله ليست هواناً، بل عودة الشيء إلى حجمه الحقيقي. حين يستكين العبد لربه يتحرر من تمثيل القوة، ويعترف بفقره، ويضع رأسه عند باب الرحمة. أما المتكبر فيريد كشف الضر دون أن ينكسر كبريائه؛ يطلب يد الله، لكنه لا يريد أن يخضع لأمره.

ثم تأتي النهاية المفاجئة للمشهد: **(حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ).**

كان باب التوبة مفتوحاً فلم يدخلوه، حتى فُتح باب العذاب. وكم بين البابين من فرصٍ ضيَّعوها! كانت الآيات تتلى، والرسول يدعو، والضر ينبه، والمهلة تمتد، لكن القلب أصرَّ على غمرته.

و **(مُبْلِسُونَ)**؛ ساكتون من شدة اليأس، منقطعو الحجة والرجاء. لقد انتهى جوارهم إلى صمت، واستكبارهم إلى ذهول، وإنكارهم إلى مشاهدةٍ لا تنفع.

وهكذا تواجه السورة الإنسان بحقيقتين: كتابٌ ينطق بالحق، وقلبٌ قد يرفض سماعه؛ طريقٌ مستقيم، وهوى يريد أن يعوجه؛ باب رحمةٍ مفتوح اليوم، وباب عذابٍ قد يُفتح غداً.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وما يزال الوقت في يد الإنسان ما دام يسمع النداء ويقدر أن يرجع.
أخطر ما في الغفلة ليس أنها تحجب الحقيقة لحظةً، بل أنها قد تستمر
حتى تأتي الحقيقة في صورة مصيرٍ لا يمكن تغييره.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ... أدوات الهداية حين تتحول إلى حجج

بعد أن عرضت السورة قلوبًا غمرت بها الغفلة، وعقولًا أعرضت عن تدبر القول، ذكرت الإنسان بالأدوات التي وهبها الله له لئلا يضل: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ).

لم يقل: أعطاكم، بل قال: (أَنْشَأَ لَكُمْ)؛ ففي كل حاسة بناءً معجز، ونظام بالغ الدقة، وقصة تكوينٍ لم يشارك الإنسان في صنعها. لقد أُعطي أدوات المعرفة قبل أن يعرف قيمة المعرفة، وفُتحت له نوافذ الوجود قبل أن يتعلم أسماء الأشياء.

قدّم السمع؛ لأن الإنسان يستقبل به الخطاب والوحي قبل أن يملك كثيرًا من أدوات النظر والاستدلال. يسمع الطفل قبل أن يحسن التعبير، وتدخل اللغة إلى عالمه من بوابة الصوت، ويتلقى المؤمن كلام الله سماعًا، فتنتقل الهداية من الأذن إلى القلب.

ثم جاءت الأبصار؛ فلا يكفي أن يُقال للإنسان: انظر، بل مُنح الجهاز الذي يبصر به عالم الألوان والأشكال والمسافات. والعين لا تخلق النور ولا تصنع المرئي، لكنها تستقبل كليهما؛ فكأن كل إبصارٍ لقاءً بين نعمة في الجسد ونعمة في الكون.

ثم جاءت (الْأَفْئِدَةُ)؛ موضع الفهم والتعقل والوعي الوجداني. فالحواس تجمع الشواهد، لكن الفؤاد هو الذي يمنحها معناها. قد يرى اثنان المشهد

نفسه، فيرى أحدهما آيةً ويرى الآخر مادةً صامته؛ لأن الفرق لم يكن في العين، بل في القلب الذي استقبل ما رأت العين.

ومن هنا نفهم أن الهداية لا تُنتجها كثرة المشاهد وحدها. قد يعيش الإنسان بين دلائل الله، ويسمع آياته، ثم لا يهتدي؛ لأن الأدوات لم تُستخدم فيما خُلقت له. فالأذن قد تتحول من طريقٍ إلى الحق إلى مستودعٍ للضجيج، والعين من نافذةٍ للتفكير إلى بابٍ للشهوة، والعقل من ميزانٍ للتمييز إلى محامٍ بارع عن الهوى.

ولهذا قال: **(قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)**. والشكر ليس أن تقول: الحمد لله، ثم تستخدم النعمة في معصيته؛ بل أن تعيد كل أداةٍ إلى غايتها. شكر السمع أن لا تجعله مأوى للباطل، وشكر البصر أن تحفظه وتتفكر به، وشكر الفؤاد أن لا تسلمه لمن يملؤه بالشبهات والأحقاد.

إن النعمة التي لا تقود إلى الله قد تتحول يومًا إلى حجةٍ على صاحبها؛ لأن السؤال لن يكون فقط: ماذا كنت تملك؟ بل: ماذا فعلت بما ملكت؟

ثم أعادت السورة الإنسان إلى الأرض: **(وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**.

ذراكم؛ أي بئكم ونشركم في أرجائها. شعوبٌ وألسنة وألوان، يعيش كل إنسانٍ في بقعة، ويحسب أن عالمه الخاص هو العالم كله. لكن هذا الانتشار الواسع له موعد اجتماع: **(وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**.

من الله بدأ الخلق، وفي أرضه انتشر، وإليه يعود. تتفرق الطرق في الدنيا، لكن النهاية تجمع أصحابها أمام رب واحد. يموت الناس في البر والبحر، تحت الأنقاض وفي الفراش، في بقاع معلومة وأخرى لا يعرفها أحد، ثم لا تضيع منهم ذرة.

ما من قبرٍ بعيدٍ عن علمه، ولا جسدٍ تلاشى خارج قدرته. فالذي ذرأ البشر في أنحاء الأرض قادرٌ على جمعهم؛ بل إن الجمع ليس أعجب من النشر الأول.

ثم تقول السورة: (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

الحياة والموت ليسا حادثتين منفلتين في الكون، بل إعلان من أفعال الله. نحن نرى أسبابًا للحياة وأسبابًا للموت، لكن الأسباب لا تستقل بإيجاد شيء. كم من أسبابٍ للحياة اجتمعت ثم وقع الموت، وكم من أسبابٍ للهلاك أحاطت بإنسانٍ ثم نجا؛ لأن الأمر في نهايته لله.

وإليه يعود اختلاف الليل والنهار؛ هذا التعاقب الذي صار مألوفًا حتى اختفى إعجازه. لا ينسى الليل مواعده، ولا يستبد النهار بالسماء، ولا تختلط الدورة في فوضى. لكل منهما إقبال وإدبار، وفي اختلافهما تنضبط الحياة، وتهدأ الأجساد، وتنضج الثمار، وتُقاس الأعمار.

إن كل صباحٍ صورةٌ مصغرةٌ للبعث؛ ظلامٌ يغطي الأرض، وسكونٌ يشبه الموت، ثم يندفع النور وتنهض الكائنات. وكل نومٍ تذكيرٌ بأن الإنسان يُسلم وعيه ثم يُعاد إليه دون أن يملك طريقة إعادته.

ولهذا ختمت الآية بقوله: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ). فالعقل في القرآن ليس آلة للجدل، بل قدرة على وصل المشاهد بدلالاتها. من رأى الحياة والموت، والليل والنهار، ثم لم يعبر منها إلى قدرة الله، فقد استعمل طرف العقل وترك غايته.

لكنهم لم يعقلوا، بل أعادوا العبارة القديمة: (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ○ قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ).

تتغير القرون، لكن الاعتراض يتكرر حرفياً. كأن التقليد لا يقع في العقائد الموروثة فقط، بل في الشبهات أيضاً؛ ينقل المتأخر عن الأول إنكاره، ثم يتخيله ثمرة عقلٍ مستقل.

إنهم يصفون التحلل وصفاً صحيحاً: تراباً وعظاماً، لكنهم يبنون عليه نتيجة خاطئة: استحالة البعث. والمشكلة أنهم جعلوا حالة المخلوق دليلاً على عجز الخالق؛ نظروا إلى العظام، ولم ينظروا إلى من أنشأها.

ثم قالوا: (لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

طال انتظارهم فظنوا أن الوعد قد بطل. لكن تأخر الموعد في حساب الإنسان لا يغيّر ثبوته في علم الله. إن القيامة لا تتأخر؛ هي تأتي في الوقت الذي قدره الله، وإنما الإنسان يقيس عمر الكون بعمره القصير، ويريد للغيب أن يخضع لإيقاع استعجاله.

ووصفوا الحق بأنه (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)؛ لأن وضع الفكرة في خانة الأسطورة يعفيهم من مناقشتها. إن بعض الأوصاف لا تُستخدم للفهم، بل للهروب من الفهم؛ يضع الإنسان عنواناً ساخراً على الحقيقة، ثم يشعر أنه أبطلها.

عندها تنتقل السورة من التقرير إلى المحاوره، فتسألهم بما لا يستطيعون إنكاره: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ).

هم يعترفون بأن الأرض ومن فيها لله. لكن السؤال ليس عن معلومة غائبة، بل عن أثر المعلومة في الحياة. فإذا كانت الأرض لله، فبأي حق يخرج الإنسان فيها عن أمر مالکها؟ وإذا كان هو مملوكاً لله، فكيف يتصرف في نفسه كأنه صاحب السيادة المطلقة؟

قال: (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)؛ لأن الحقيقة موجودة في مكان ما من الفطرة، لكنها غطاها الركام. والتذكر ليس إضافة شيء غريب إلى النفس، بل إزالة ما حجب المعرفة الأولى.

ثم يرتفع السؤال إلى السماء: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ).

إذا كان الله رب السماوات ورب العرش العظيم، فكيف لا يتقونه؟ إن الاعتراف بربوبيته الكونية دون الخضوع لألوهيته تناقض في صميم الوعي. يقولون بأن الله يدبر الأعظم، ثم يرفضون أن يدبر حياتهم؛ يسلمون له بالسماء، وينازعونه سلطان القلب.

والتقوى هي الثمرة العملية للمعرفة. ليست العبرة أن تعرف من رب العرش، بل أن تستحي من مخالفة أمره وأنت تحت عرشه، وفي ملكه، وتتنفس من رزقه.

ثم يأتي السؤال الثالث: (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ).

(مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)؛ الملك الكامل، والسلطان الذي لا يخرج عنه موجود. هو الذي يمنح الحماية، ولا يستطيع أحد أن يحمي من حكمه. إذا أجار عبداً لم تصل إليه قوى الأرض إلا بإذنه، وإذا جاء قضاؤه لم يملك الكون كله أن ينشئ للإنسان ملجأً خارجه.

فإذا كانوا يعترفون بهذا، (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)؟ كيف تُصرف عقولكم عن النتيجة التي تشهد لها مقدماتكم؟ وأي سحرٍ أشد من هوى يجعل الإنسان يعترف بأن الملك كله لله، ثم يعيش متعلقاً بغيره، خائفاً من غيره، راجياً غيره رجاء العبادة؟

إنها غربة العقل عن مقتضى ما يعرف. فليس الجهل دائماً غياب المعلومة؛ قد يكون انقطاع الصلة بين المعلومة والقرار. يعرف الإنسان أن الرزق بيد الله، ثم يبيع مبادئه خوفاً على رزقه؛ ويعرف أن الموت آتٍ، ثم يعيش كأنه مستثنى؛ ويعرف أن الله يراه، ثم يستخفي من الناس ولا يستخفي منه.

ثم تقول السورة: (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

جاءهم الحق متماسكًا، منسجمًا مع الفطرة والعقل وآيات الكون، لكنهم كاذبون في دعوى أن البعث أسطورة، وفي نسبة الشريك إلى الله، وفي الأعدار التي يغطّون بها رفضهم.

ثم تقطع أصل الشرك: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا ذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ).

لو تعددت الآلهة لتعددت الإرادات المستقلة، ولذهب كل إليه بخلقه، ولوقع التنازع والعلو. لكن الكون وحدة منسجمة، تجري أجزاؤه تحت نظام متصل؛ وهذا الاتساق شاهدٌ على وحدة المدبر.

التوحيد ليس فكرةً منعزلة عن بناء العالم، بل هو التفسير الذي ينسجم مع وحدته. شمسٌ واحدة تشرق على الجميع، وقوانين مترابطة تجري في السماوات والأرض، ونظامٌ لا يظهر فيه أثر صراع آلهة متنازعة. إن وحدة النظام تردّ العقل إلى وحدة الأمر.

أما نفي الولد، فلأن الولد يُطلب لحاجة، أو امتداد، أو معاونة، والله غنيٌّ كامل، لا يلحقه فناء يحتاج معه إلى امتداد، ولا عجزٌ يحتاج معه إلى معين. فكل تصورٍ يقيس الله على حاجات المخلوق يهدم التنزيه من أساسه.

ثم يأتي التسبيح: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) ٥ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

(سُبْحَانَ اللَّهِ)؛ تنزيهٌ له عن كل وصفٍ لا يليقُ بكماله. فاللغة البشرية قد تحمل آثار عالمنا المحدود، ولذلك يحتاج المؤمن كلما تحدث عن الله أن يحرس قلبه بالتنزيه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). نثبت ما أثبتته الله لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، بلا تشبيه ولا تمثيل.

وهو (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)؛ يعلم ما نراه وما لا نراه، وما نعلمه وما نخفيه، وما وقع وما سيقع. لا يحتاج إلى ولدٍ يخبره، ولا شريكٍ يعينه، ولا وسيطٍ يكمل علمه. كل مستورٍ عنده مكشوف، وكل مجهولٍ عندنا داخلٌ في علمه.

وهنا تبلغ الحجة تمامها: الأرض له، والسموات له، والعرش له، وملكوت كل شيءٍ بيده، والغيب والشهادة في علمه؛ فكيف يبقى في القلب موضعٌ لعبادة غيره؟

إن التوحيد ليس أن تقول: الله واحد، ثم تعيش موزَّع الخوف والرجاء بين آلهة المصالح والناس والأسباب. التوحيد أن تسترد الروح وحدتها؛ فلا ترى مالكا على الحقيقة إلا الله، ولا ملجأً منه إلا إليه، ولا غايةً تستحق أن يضيع لأجلها رضاه.

وحين يستقر هذا المعنى، تتحول الحواس من منافذ للغفلة إلى وسائل للمعرفة، ويتحول الكون من أشياء صامتة إلى شهادةٍ كبرى، ويخرج الإنسان من سحر المألوف ليرى الحقيقة التي كانت تحيط به دائماً: أنه في ملك الله، قائمٌ بأمر الله، سائرٌ إلى الله.

رَبِّ إِمَّا تُرِيِّي... قَلْبُ الْمُؤْمِن بَيْنَ فِتْنَةِ الْحَاضِرِ وَمَشْهَدِ الْمَصِيرِ

بعد أن نزهت السورة الله عن الشرك، وأعلنت إحاطة علمه بالغيب والشهادة، علّمت النبي ﷺ أن يلجأ إلى ربه من العذاب الذي أنذر به المكذبون: (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٠﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

إنه دعاءٌ عجيب في أدبه وخشيته. فالرسول ﷺ هو أكرم الخلق على الله، ومع ذلك يُؤمر أن يسأل ربه ألا يجعله في القوم الظالمين. وكأن القرب من الله لا ينشئ غرورًا بالأمان، بل يزيد القلب افتقارًا إلى الحفظ والنبات.

لا يقول المؤمن: أنا أعرف الحق، إذن لا أخشى على نفسي؛ بل يعلم أن المعرفة نعمةٌ تحتاج إلى حراسة، وأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء على الوجه اللائق بجلاله سبحانه، فيدعوه أن يثبتته.

وفي قوله: (فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) درسٌ في أن الفتن العامة قد تحيط بالصالحين، وأن المؤمن لا يكتفي بإنكار الظلم في قلبه، بل يسأل الله أن لا يكون جزءًا من بيئته أو آله أو صمته الذي يقويه. فقد لا يباشر الإنسان الظلم بيده، لكنه قد يدخل في القوم الظالمين بتبريره لهم، أو الانتفاع ببيغهم، أو خذلان المظلوم بين أيديهم.

ثم يقول الله: (وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَّكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ).

الوعيد ليس تهديداً بلا قدرة؛ فالله قادرٌ أن يري رسوله ما وعد المكذبين. وإذا تأخر الجزاء، فليس لعجزٍ في المنقذ، بل لحكمةٍ في التوقيت. قد يتوهم الظالم أن امتداد المهلة دليل نجاته، بينما هو يتحرك داخل قبضة القدرة، لا يخرج عنها لحظة.

ومع ذلك، لا يأمر الله نبيه بأن ينشغل بانتظار الانتقام، بل يوجهه إلى أخلاق الرسالة: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ).

هنا يبلغ الإيمان مقاماً رفيعاً؛ فلا يكتفي المؤمن بأن لا يفعل السيئة، بل يدفعها بما هو أحسن. يواجه الإساءة لا بأول ما تمليه الجراح، بل بأفضل ما يرضي الله ويحقق الخير.

والدفع بالتي هي أحسن لا يعني إلغاء العدل، ولا تمكين الظالم من مواصلة ظلمه؛ بل يعني أن تكون وسيلة مقاومة الشر طاهرةً من روحه. فلا يدفعك الكذب إلى الكذب، ولا الخيانة إلى الخيانة، ولا يحوِّلك ظلم خصمك إلى نسخةٍ أخرى منه.

إن السيئة تريد أكثر من إيدائك؛ تريد أن تستوطنك، وأن تجعل قلبك يتكلم بلغتها. والانتصار الحقيقي عليها أن تمنعها من تغيير معدنك. قد تؤلمك ولا تُفسدك، وتجرحك ولا تنزع منك العدل، وتستفزك فلا تسلّمها زمام أخلاقك.

ثم قال: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ). فلا حاجة لأن يهلك الإنسان نفسه في تصحيح كل افتراء، أو مطاردة كل كلمة. إن الله يعلم الحقيقة كاملة، وحين تستقر هذه المعرفة في القلب يتحرر من العبودية لصورة الناس

عنه. يدفع بالتي هي أحسن، ثم يترك ما خفي من أمره لمن لا تخفى عليه خافية.

لكن الأخلاق الرفيعة تحتاج إلى حماية من نزغات الشيطان؛ لذلك جاء الدعاء: (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) ❶ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ).

الهمزات هي الدفعات الخفية التي تحرّك النفس نحو الشر: خاطر غضبٍ يُزَيِّن، أو شكٌّ يُضَحِّم، أو رغبة انتقامٍ تتخفى باسم الكرامة، أو رياءٌ يرتدي ثوب الدعوة. والشيطان لا يبدأ دائماً بأمرٍ كبير؛ قد يهمز القلب همزةً صغيرة، ثم يترك النفس تكمل الطريق.

ومن فقه الدعاء أنه لم يطلب النجاة من الفعل الشيطاني فقط، بل من حضور الشياطين: (أَنْ يَحْضُرُونَ). فبعض الشر يبدأ قبل وقوعه، حين تتشكل حول القلب بيئة من الوسوس والظنون والانفعالات. ومن استعاذ بالله من الحضور، فقد طلب أن تُحمى البدايات قبل أن تصبح أفعالاً.

وكرر: (رَبِّ)؛ لأن الاستعاذة ليست صيغةً لسانية جامدة، بل احتمال العبد بربه. كأن القلب يقول: يا من ربّيتني بنعمتك، لا تتركني في موضعٍ تعبث فيه الشياطين بعزيمتي.

ثم تنقل السورة المشهد فجأةً إلى ساعة الموت: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) ❷ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ).

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

ما كان يستعِذُ منه المؤمنُ في حياته، يستيقظُ إليه الغافلُ عند موته؛ لكن بعد فوات زمن العمل. يقول: (رَبِّ ارْجِعُونِ). عرف الآن ربه الذي أعرض عنه، وعرف قيمة العمل الصالح الذي كان يراه مؤجلاً، وعرف أن ما تركه خلفه لم يكن هو الحياة الحقيقية.

إنها أمنيةٌ متواضعةٌ في ظاهرها: لا يطلب قروناً جديدة، بل رجعةً يرمم بها ما أفسد. لكن لحظةً واحدةً من الدنيا تصبح عند الموت أثمن من كل ما جمع فيها؛ لأن الإنسان لا يعرف قيمة الوقت كاملةً إلا حين يخرج من يده.

قال: (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا). كان يستطيع أن يعمل، لكنه قال: لاحقاً. كان يملك اليقين الاختياري فاستبدله بالتسويق، حتى جاءه يقين المشاهدة الذي لا ينفع. والتسويق ليس مجرد تأخير للعمل؛ إنه رهانٌ على عمرٍ لم يُمنح للإنسان.

فيأتي الجواب: (كَأَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا).

(كَأَلَّا)؛ انتهى زمن العودة. إنها كلمةٌ يقولها تحت ضغط الحقيقة، ولو عاد من غير تغيير في جوهره ربما رجع إلى ما نُهي عنه. فليس كل ندم توبة؛ بعض الندم ألمٌ من العقوبة، لا كراهيةً للذنب.

ثم تقول السورة: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

البرزخ حاجزٌ بين الدنيا والبعث. خرج الإنسان من عالم القدرة على الاختيار إلى عالم الانتظار؛ لا يعود ليزيد حسنةً أو يمحو سيئةً، وإنما يلقى ما قدم.

كم هو قريب هذا البرزخ مع أن الناس يعيشون كأنه بعيد! ليس بين الإنسان وبينه إلا توقف قلب، وانقطاع نفس، ولحظة لا يعلم موعدها. وقد يخطط المرء لعشرات السنين، بينما لا يملك ضمان الدقيقة التالية.

ثم تأتي النفخة التي تسقط عندها أنساب الدنيا وامتيازاتها: **(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ).**

الأنساب التي كانت تصنع مكانة الإنسان في الدنيا لا تمنحه يومئذٍ نجاة. لا يعني هذا انعدام معرفة القرابة، بل سقوط قدرتها على الإنقاذ؛ فكل نفس مشغولةٌ بمصيرها، وكل إنسان قائمٌ بعمله.

في الدنيا قد ينجو المرء باسم أسرته، أو نفوذ قبيلته، أو قربه من صاحب سلطة. أما يوم القيامة، فلا يحمل اسمٌ عملاً، ولا يرث الابن تقوى أبيه، ولا يدفع النسب عن صاحبه خفة الميزان.

وهنا يعيد القرآن الإنسان إلى فرديته الأخلاقية: أنت مسؤولٌ أمام الله عن نفسك، وإن أحببت الصالحين وانتسبت إليهم. المحبة باب خير، لكنها لا تغني عن الصدق؛ والنسب إلى أهل الفضل تكليفٌ بالاقتداء، لا وثيقة إعفاء من الحساب.

ثم يوضع الميزان: (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ).

تعود كلمة (الْمُفْلِحُونَ) التي افتتحت بها السورة. هناك قيل: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)، وهنا نرى الفلاح وقد ظهر في الميزان. كأن الصفات الأولى لم تكن وصفاً أخلاقياً جميلاً فحسب، بل كانت أثقال النجاة التي سيجدها أصحابها يوم القيامة.

في الدنيا تُقاس الأشياء بحجمها الظاهر، أما هناك فتُقاس بوزنها عند الله. قد تكون كلمة لا يلتفت إليها الناس ثقیلةً بالإخلاص، وقد يبدو عملٌ ضخم خفيفاً لأنه امتلاً بالرياء. الميزان الإلهي لا تخدعه الواجهات.

أما الخاسرون فقال عنهم: (خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ). لم يخسروا مالاً أو منصباً يمكن تعويضه، بل خسروا الذات التي كان ينبغي إنقاذها. وما أفدح أن يربح الإنسان أشياء العالم كلها، ثم يكتشف أن الثمن كان نفسه!

ثم تصف السورة مشهد النار: (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ).

الوجه موضع الكرامة والتعبير، وفيه كانت تظهر ملامح الكبر والسخرية؛ فإذا بالنار تلفحه، وإذا الملامح التي كانت تنزين للدنيا تنقبض من شدة العذاب. و** (كَالِحُونَ)** تصور وجوهاً تقلصت شفاهاها، وذهبت عنها بشاشة الأمل.

ثم يأتي التوبيخ: (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ).

لم يُعذبوا بلا بيان. كانت الآيات تتلى؛ أي إن الرحمة سبقت العقوبة، والحجة سبقت الحساب. كل آية سمعوها كانت فرصة نجاة، لكنهم حوّلوا بالتكذيب إلى شاهدٍ عليهم.

فيعترفون: (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ).

ها هم يسمّون الأشياء بأسمائها أخيراً: شقوة وضلال. لكنهم في الدنيا كانوا يسمون الضلال حريةً، والشقوة متعةً، والإعراض استقلالاً. يوم القيامة تسقط الأسماء المزيفة، وتظهر الحقائق عاريةً من زخرف اللغة.

غير أن قولهم: (غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) لا يعفيهم؛ فقد كانوا يختارون أسبابها حتى اشتدت عليهم. الإنسان يصنع بعض قيوده بتكرار الاستجابة للهوى، ثم يشعر بعد زمنٍ أنها غلبته. ولذلك كان إصلاح البداية أيسر من كسر السلاسل بعد اكتمالها.

ثم يقولون: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ).

وعدُّ يأتي في زمن لا تُقبل فيه الوعود. كم وعد الإنسان ربّه في الدنيا ثم نكث، وكم خرج من شدةٍ فعاد إلى غفلته! والآن يطلب تجربةً أخرى، لكن الحياة لم تكن مسودةً قابلةً لإعادة الكتابة؛ كانت النسخة التي ستُعرض.

فيأتي الجواب المزلزل: (قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ).

أشدّ العذاب ليس النار وحدها، بل انقطاع الخطاب؛ أن يُطردوا من مقام المناجاة، بعد أن كان باب الدعاء مفتوحاً لهم في الدنيا. كانوا يستطيعون

أَنْ يَقُولُوا: يَا رَبِّ، فَيَجِدُوا الرَّحْمَةَ قَرِيبَةً، فَلَمَّا أَصْرَوْا عَلَى الْإِعْرَاضِ قِيلَ لَهُمْ: (وَلَا تُكَلِّمُونِ).

ثم يكشف الله جريمةً ربما حسبوها هينة: (إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَّكُونَ).

كان المؤمنون يدعون في ضعفهم: (رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا). لم يتعالوا بإيمانهم، بل وقفوا فقراء إلى المغفرة. ومع ذلك اتخذهم المستكبرون مادةً للسخرية؛ ضحكوا من خشوعهم، ومن تمسكهم بالحق، ومن رجائهم بالله.

وقد تبلغ السخرية من أهل الإيمان أن تستولي على صاحبها حتى تنسيه ذكر الله: (حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِي). ليس لأن المؤمنين تسبوا في نسيانهم، بل لأن انشغالهم بالاستهزاء بهم ملاً قلوبهم، فلم يعودوا يرون الرسالة، بل رأوا أشخاصاً يريدون تحقيرهم.

إن احتقار الصالحين ليس خطأ اجتماعيًا عابرًا؛ فقد يكون حجابًا عن الله. حين يسخر الإنسان من الدموع الصادقة، ومن العفة، ومن الصلاة، ومن التعلق بالآخرة، فإنه لا يضحك من أفراد فقط، بل من المعاني التي يحملونها.

ثم يأتي انقلاب الموازين: (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ).

أولئك الذين كانوا موضع الضحك صاروا هم الفائزين، والذين كانوا يضحكون صاروا في موضع الحسرة. لم يُجَزَّ المؤمنون لأن الطريق كان سهلاً، بل **(بِمَا صَبَرُوا)**؛ صبروا على الطاعة، وعلى أذى الساعين، وعلى وحشة الطريق، وعلى تأخر ظهور النتيجة.

ما أجمل أن يسمع المظلوم هذه الآية: إن الله لا ينسى اللحظات التي ابتلعت فيها ألمك كي لا تخسر دينك، ولا المواقف التي قاومت فيها رغبة الانتقام، ولا الوحدة التي احتملتها لأنك لم تشأ أن تشتري القبول بالتنازل عن الحق.

لقد سمّاهم: **(الْفَائِزُونَ)**. لم يكونوا خاسرين حين سخر الناس منهم؛ كانت الخسارة مجرد صورةٍ صنعها ميزان الدنيا المختل. أما حين حضر الميزان الحق، ظهر أن صبرهم كان استثماراً في الخلود، وأن دموعهم كانت تثقل الموازين، وأن سخرية المستكبرين لم تنقص من كرامتهم شيئاً.

هكذا يلتقي آخر المشهد بأول السورة: فلاح المؤمنين في المطلع، وفوز الصابرين في المآل. وبينهما حياةٌ قصيرة يُمتحن فيها الإنسان: أختار ضحكةً عابرة مع أهل الغفلة، أم صبراً قصيراً ينتهي إلى رضا الله؟

كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ... حين تنكش الدنيا أمام الأبد

بعد أن انكشفت الموازين، وانقلبت مواقع الساخرين والمستضعفين، يأتي سؤالٌ يعيد الدنيا كلها إلى حجمها الحقيقي: (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾.

كانوا في الدنيا يقيسون أعمارهم بالسنوات، ويملؤون كل عامٍ بأحلامٍ ومنافساتٍ وخصوماتٍ. كانت الأيام تبدو طويلة حين ينتظرون شهوة، والسنوات تبدو كثيرة حين يؤجلون توبة، حتى إذا وقفوا أمام الأبد تقلص العمر كله إلى (يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ).

ليست المشكلة أنهم فقدوا القدرة على العد، بل أن نسبة الدنيا إلى الآخرة أسقطت قيمة عددها. فالزمن لا يُقاس بطوله المجرد فقط، وإنما بما يُقارن به. قطرة الماء قد تبدو كبيرةً في كف الإنسان، حتى يراها أمام البحر.

كم من ألمٍ ظن صاحبه أنه لن ينتهي، فإذا مضى صار ذكرى بعيدة! وكم من لذةٍ أنفقت في سبيلها الأعمار، فإذا انتهت لم يبق منها إلا أثرٌ في الصحيفة! إن الدنيا من داخلها تبدو ممتدة، لكنها من ضفة الآخرة لحظة عابرة.

وقولهم : (فَاسْأَلِ الْعَادِينَ) يوحي بذهاب اليقين بالتفاصيل؛ فالأيام التي كانوا يحرصون على إحصائها فقدت تمايزها. عاشوا زمنهم منشغلين بعدد الأموال والأبناء والانتصارات، ثم وقفوا عاجزين عن تحديد عدد السنين التي أقاموا فيها.

فيأتي الجواب : (قَالَ إِنَّ لِبَيْتِكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

نعم، كان قليلاً؛ لكنهم لم يعلموا حقيقته وهم فيه. كانوا يعرفون بالسنتهم أن الدنيا فانية، لكنهم عاملوها بقلوبهم كأنها باقية. فليس العلم أن تحفظ وصف الدنيا بالقصر، بل أن يظهر هذا العلم في اختياراتك: ألا تبيع الأبد من أجل لحظة، وألا تهدم علاقتك بالله لتنجو من حرجٍ عابر، وألا تجعل خصومةً قصيرة تملأ قلبك حتى الموت.

لو علم الإنسان حقاً أن المكث قليل، لهانت عليه مشقة الطاعة؛ لأن التعب الذي له نهاية صغيرة لا ينبغي أن يحجب النعيم الذي لا نهاية له. ولهانت عليه زخارف المعصية؛ لأن اللذة التي تمضي قبل أن يشبع منها صاحبها لا تستحق حسرةً لا تنقضي.

إن أكثر أخطاء الإنسان تنشأ من فساد إحساسه بالزمن. يتعامل مع اللحظة الراهنة كأنها الحقيقة كلها، فيضحى بالمستقبل من أجلها؛ ويعامل الآخرة كأنها بعيدة، مع أنها تقترب منه مع كل نفس. وكل يوم يمضي لا يبعده عن الموت، بل يقربه إليه.

ثم يأتي السؤال الذي يهدم تصور العبث من جذوره : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ).

هذه الآية ليست سؤالاً عن فكرة فلسفية مجردة، بل محاكمة لطريقة حياة. فقد لا يقول الإنسان بلسانه إن وجوده عبث، لكنه يعيش كما لو كان كذلك؛ يأكل ويجمع ويتنازع ثم يموت، دون أن يسأل عن الرسالة التي استودعت في عمره.

العبث هو أن يكون هذا التكوين المدهش بلا غاية، وأن تُمنح للإنسان قدرة المعرفة والاختيار والضمير ثم ينتهي كل شيء إلى العدم، وأن يُترك الظالم والمظلوم للمصير نفسه، وأن تكون نداءات الأنبياء وتضحيات الصالحين ودموع التائبين حركاتٍ لا معنى لها في كونٍ أصم.

لكن الذي خلق النطفة في قرارٍ مكين، ونقلها بين الأطوار، وأنشأ لها السمع والأبصار والأفئدة، وسخر لها الماء والشجر والأنعام، وأرسل إليها الرسل، لم يفعل ذلك عبثاً. إن دقة الخلق شاهدة على جلال الغاية؛ فكلما ازداد التكوين إحكاماً، ازداد تصور العبث سقوطاً.

ثم قرنت الآية نفي العبث بإثبات الرجوع: (وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ). فالرجوع إلى الله هو الذي يمنح الرحلة معناها الكامل. لو لم تكن هناك عودة، لبقيت أسئلة العدل معلقة، ولصار الضمير صوتاً بلا محكمة، ولانتهت القيم إلى مجرد أذواق متغيرة.

إن الآخرة ليست ملحاً بالعقيدة، بل هي الحقيقة التي تجعل للحياة اتجاهاً. نحن لم نُخلق لنقيم هنا إلى الأبد، بل لنمتحن في الطريق ثم نعود. وكل شيء في الدنيا يحمل أثر المؤقت: الجسد يضعف، والمتاع يبلى، والأحبة

يرحلون، والدول تزول؛ وكأن الفناء مكتوبٌ على الأشياء كي لا نخطئ بينها وبين الوطن الأخير.

وعندما ينفي الله العبث عن خلقه، فإنه يعيد لكل حياةٍ كرامتها. وجودك ليس زائداً في العالم، وألمك ليس تفصيلاً منسياً، وخيرك الذي لم يره أحد لم يضع. أنت مخلوقٌ بعلم، موضوعٌ في زمانك بقدر، مُعطى من المواهب والابتلاءات ما تقوم به حجتك، ثم راجعٌ إلى من يعلم سرّك ونجواك.

ثم تعلقو السورة بالتسبيح والتعظيم: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ).

(فَتَعَالَى اللَّهُ) عن أن يخلق عبثاً، أو يترك الخلق سدى، أو يعجزه بعثهم، أو يظلم منهم أحداً. وتعالى سبحانه عن مشابهة خلقه؛ فهو كما وصف نفسه، منزلةٌ عن التمثيل والتكيف، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

وهو (الْمَلِكُ الْحَقُّ)؛ ليست ملكيته عارضة، ولا سلطانه مستمداً من رضا أحد. ملوك الأرض يملكون شيئاً ويفقدون أشياء، ويحكمون زمناً ثم يُحكم عليهم بالموت؛ أما الله فملكه ثابتٌ كامل، وكل سلطانٍ سواه عاريةٌ تنتهي حين يشاء.

ووصفه بالحق لأن وجوده حق، ووعدته حق، وحكمه حق، ولقاءه حق. وفي عالمٍ تمتلئ واجهاته بالزيف، يحتاج القلب إلى ملكٍ لا يتبدل حكمه بتبدل المصالح، ولا تختلط عليه الحقائق، ولا تفسده القوة؛ لأنه الكامل في ذاته وصفاته.

ثم جاءت كلمة التوحيد في موضعها الجامع: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

هي الكلمة التي نادى بها نوح، وجاء بها الرسل تنترى، وواجه بها موسى فرعون، واجتمعت عليها الأمة الواحدة. بدأت في التاريخ نداءً، وتظهر في خاتمة السورة حقيقة لا ينازع فيها أحد.

إنها ليست نفيًا للأصنام الحجرية وحدها، بل نزغ لكل سلطان باطل من القلب. لا إله إلا هو؛ فلا يُعبد غيره، ولا يُرجى رجاء العبادة سواه، ولا يُخاف خوف السر إلا منه، ولا يُقدّم على أمره هوى أو شخص أو جماعة.

وهو (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). وإذا كان رب العرش العظيم هو ربك، فكيف يستوحشك الطريق؟ وكيف تستسلم لشعور أنك بلا سند؟ إن الذي يدبر ملكوته كله يسمع دعائك، والذي لا تضطرب بحكمه السماوات قادرٌ أن يردّ إلى قلبك سكينته.

ثم تقيم السورة الحجة الأخيرة على الشرك: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ).

قال: (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)، لا لأن الشرك قد يملك برهانًا في حالة أخرى، بل لأن طبيعته خالية من البرهان. فكيف يُعبد مخلوقٌ لا يملك لنفسه وجودًا ولا موتًا ولا نشورًا؟ وكيف يُمنح حق الله من هو قائمٌ بالله، محتاجٌ إليه؟

والتعبير يكشف أن الإيمان ليس استسلامًا بلا دليل كما يتوهم بعضهم؛ بل الشرك هو القفزة التي لا برهان لها. أما التوحيد فتشهد له الفطرة، ويصدقها انتظام الكون، وتنادي به الرسالات، وتقوم عليه وحدة الخلق والتدبير.

ثم قال: **(فَاتِّمَّا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)**. لم يأذن للبشر أن يفتشوا عما في الصدور أو يتولوا الحساب النهائي؛ فالله وحده يعلم مقدار قيام الحجة، وخفايا النيات، ومآلات العباد. علينا البيان والعدل، أما الحكم التام فالإلى رب العالمين.

ويأتي ختام الآية: **(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)**، فيقابل مطلع السورة مقابلةً كاملة. بدأت بقوله: **(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)**، وقاربت النهاية بقولها: **(لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)**.

بين الجملتين ينقسم الطريق كله؛ هناك إيمانٌ يتحول إلى خشوعٍ وعفة وأمانة وعمل، وهناك كفرٌ يتحول إلى استكبارٍ وتكذيبٍ وسخرية. ليست القضية أسماءً ينتزياً بها الناس، بل حقيقتان تصنعان حياتين ثم تنتهيان إلى مصيرين.

وأخيراً، بعد مشاهد العذاب، والميزان، وخسارة النفس، تختم السورة لا بصوت الرهبة وحده، بل بنداء الرحمة: **(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)**.

يا لعظمة هذا الختام! السورة التي افتتحت بالفلاح تنتهي بطلب المغفرة والرحمة، كأنها تعلمنا أن المؤمن، مهما خشع وحفظ وأدى وسارع، لا

يدخل الجنة مستغنياً بعمله عن رحمة الله. العمل طريق العبودية، لكنه لا يجعل العبد صاحب حقٍّ متعالٍ على فضل ربه.

بدأت السورة بصيغة الجمع: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)، لكنها ختمت بمناجاةٍ فردية: (وَقُلْ رَبِّ). ففي الطريق جماعةٌ مؤمنةٌ تسند بعضها بعضاً، لكن عند باب الله لكل قلبٍ مناجاته، ولكل عبدٍ فقره الخاص.

وقُدِّمت المغفرة على الرحمة؛ لأن الذنب حجاب، والمغفرة تزيله، ثم تأتي الرحمة فتفيض بالعتاء. كأن العبد يقول: يا رب، طهر الماضي مما أثقله، ثم تفضل على المستقبل بما يصلحه. امحُ ما أخاف، وهب لي ما أرجو.

ولم يقل: ارحمني لأنني أستحق، بل قال: (وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِمِينَ). علق رجاءه بصفة ربه، لا بكمال نفسه. وهذا هو الأمان الذي لا ينكسر: أن يكون رجاؤك قائماً على رحمة الله الواسعة، مع سعي صادق وخوفٍ يمنعك من الاغترار.

وهكذا تكتمل الرحلة.

بدأت السورة بالمؤمن في صلاته خاشعاً، وانتهت به داعياً مسترحماً. وبين الخشوع والدعاء مرّت به على أصل خلقه، والسماء فوقه، والماء الذي يشربه، والأنبياء الذين هدوه، والأمم التي كذبت، والقبر الذي ينتظره، والميزان الذي يزن عمله، والفردوس الذي يرجوه.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

لقد بنت سورة المؤمنون تعريفاً حياً للإيمان: أن تعرف أصلك فلا تتكبر، وأن ترى النعمة فلا تجحد، وأن تسمع الوحي فلا تعرض، وأن تواجه السيئة بما هو أحسن، وأن تعمل وقلبك خائف من عدم القبول، وأن تعيش زمناً القصير بعينٍ معلقةٍ بالأبد.

والفلاح الذي أعلنت عنه السورة ليس انتصاراً صახباً في الدنيا، بل أن تصل إلى الله بقلبٍ لم تفسده الطريق؛ قلبٍ خضع حين قست القلوب، وحفظ حين انفلتت الشهوات، وأدّى الأمانة حين شاعت الخيانة، وصبر حين صار الإيمان موضع سخريّة.

ثم إذا بلغ آخر الطريق، لم يقل: نجوت بعلمي، بل رفع يديه كما علّمته السورة: (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ).

وبهذا، بحمد الله، اكتملت رحلتنا التدبرية في سورة المؤمنون، واستوعبنا آياتها من مطلع الفلاح إلى دعاء الرحمة.